



إسلام محمود دربالة





التوحيد والشرك

تأليف

إسلام محمود دربالة

الناشر

دار الآفاق

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن «التوحيد هو أول الدين وآخره وباطنه وظاهره وهو أول دعوة الرسل وآخرها وهو معنى قول: لا إله إلا الله، فإن الإله هو المألوه المعبود بالمحبة، والخشية، والإجلال، والتعظيم، وجميع أنواع العبادة، ولأجل هذا التوحيد خلقت الخليقة، وأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفار، وسعداء أهل الجنة، وأشقياء أهل النار»[1].

وقد «أخبر تعالى أنه بعث في كل أمة؛ أي في كل طائفة وقرن من الناس رسولًا بهذه الكلمة: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ﴾ [النحل: الآية ٣٦] أي اعبدوا الله وحده، واتركوا عبادة ما سواه؛ فلهذا خلقت الخليقة، وأرسلت الرسل، كما قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٢٥].

وهذه الآية هي معنى: لا إله إلا الله؛ فإنها تضمنت

(١) «تيسير العزيز الحميد» ص (٣٦).

النفي والإثبات، كما تضمنته لا إله إلا الله؛ ففي قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [المائدة: الآية ٧٢] إثبات، وفي قوله ﴿ٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [الزُّمَر: الآية ١٧] النفي.

فدلت الآية على أنه لابد في الإسلام من النفي والإثبات، فيثبت العبادة لله وحده، وينفي عبادة ما سواه، وهو التوحيد الذي تضمنته سورة ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾».

إلى أن قال: «ودلت الآية على أن الحكمة في إرسال الرسل هو عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه؛ وأن أصل دين الأنبياء واحد، وهو الإخلاص في العبادة لله»[١].

أما «الشرك فهو أعظم الذنوب؛ لأن الله تعالى أخبر أنه لا يغفره، إلا بالتوبة منه، وما عداه، فهو داخل تحت مشيئة الله، إن شاء غفره بلا توبة، وإن شاء عذب به.

وهذا يوجب للعبد شدة الخوف من هذا الذنب، الذي هذا شأنه عند الله وإنما كان كذلك؛ لأنه أقبح القبح وأظلم الظلم؛ إذ مضمونه تنقيص رب العالمين، وصرف خالص

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٥٠، ٥١).

حقه لغيره، وعدل غيره به، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١] ولأنه مناقض للمقصود بالخلق والأمر، مناف له من كل وجه، وذلك غاية المعاندة لرب العالمين، والاستكبار عن طاعته والذل له، والانقياد لأوامره، الذي لا صلاح للعالم إلا بذلك.

ولأن الشرك تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى وتقدس في خصائص الإلهية؛ من مِلك الضر والنفع والعطاء والمنع، الذي يوجب تعلق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل وأنواع العبادة كلها بالله وحده.

فمن علق ذلك لمخلوق فقد شبهه بالخالق، وجعل من لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولاحياة ولا نشورًا فضلًا عن غيره شبيهًا بمن له الخلق كله، وله الملك كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله. فأزمة الأمور كلها بيديه سبحانه، ومرجعها إليه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، الذي إذا فتح للناس رحمة، فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده، وهو العزيز الحكيم.

فأقبح التشبيه تشبيه العاجز الفقير بالذات، بالقادر الغني بالذات، ومن خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والتوبة والاستعانة وغاية الحب مع غاية الذل، كل ذلك يجب عقلًا وشرعًا وفطرة أن يكون لله وحده، ويمتنع عقلًا وشرعًا وفطرة أن يكون لغيره، فمن فعل شيئًا من ذلك لغيره، فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثل له ولا ند له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله، فلهذه الأمور وغيرها أخبر سبحانه أنه لا يغفره، مع أنه كتب على نفسه الرحمة»[(١)].

لذا وجب التحذير من الشرك، بل إن الله ﷻ حذر رسله من الشرك وخطره، فقال سبحانه مخاطبًا نبينا محمد ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: الآية ٦٥].

(١) من كلام ابن القيم رحمه الله، نقله عنه صاحب «تيسير العزيز الحميد» ص(١١٥، ١١٦) بمعناه.

وقد رأيت أنه من المكملات الضرورية لمعرفة التوحيد معرفة الشرك وأنواعه وأقسامه حتى يحذر منه، إذا أن الحق يظهر نوره بمعرفة ظلمات الباطل.

وقد قيل قديمًا: «وبضدها تتبين الأشياء».

وقال الشاعر:

عرفتُ الشر لا للشر ولكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر من الخير يقع فيه

وقد قدمت بمقدمات عن التوحيد وفضله، واتبعتها بجملة من النقولات من تعريفات وتقسيمات تكشف حقيقة الشرك حتى يحذر منه، نسأل الله ﷻ أن يعيذنا من أن نشرك به شيئًا نعلمه ونستغفره مما لا نعلمه.

وكتبه

إسلام محمود دربالة

التوحيد

التوحيد شرعًا: إفراد الله بحقوقه.

ولله سبحانه وتعالى ثلاثة حقوق:

١- حقوق عبادة.

٢- حقوق أسماء وصفات.

ويمكن أن يقال: التوحيد: هو إفراد الله ﷻ بالخلق والرزق والتدبير وعدم صرف شيء من أنواع العبادة إلا له، والإيمان بما وصف وسمى به نفسه، ووصفه وسماه به رسوله ﷺ.

ومن أهل العلم من قسم التوحيد إلى قسمين:

١ - توحيد في المعرفة والإثبات، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات.

٢ - توحيد في الطلب والقصد: وهو توحيد الإلهية والعبادة.

قال ابن القيم رحمه الله:

«واعلم أن التوحيد الذي دعت إليه رسل الله، ونزلت به كتبه، نوعان:

١- توحيد في المعرفة والإثبات.

٢- توحيد في الطلب والقصد.

فالأول: هو حقيقة ذات الرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله وعلوه فوق سمواته على عرشه، وتكلمه بكتبه وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمه.

وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد الإفصاح، كما في أول سورة الحديد، وسورة طه، وآخر سورة الحشر، وأول سورة تنزيل السجدة وأول سورة آل عمران، وسورة الإخلاص بكاملها وغير ذلك.

النوع الثاني: مثل ما تضمنته سورة ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وقوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٦٤] الآية، وأول سورة تنزيل الكتاب

وآخرها، وأول سورة يونس ووسطها وآخرها، وأول سورة الأعراف وآخرها، وجملة سورة الأنعام، وغالب سور القرآن بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد»[١].

ويقول ابن القيم في بيان معنى توحيد الربوبية: «أن يشهد صاحبه قيومية الرب تعالى فوق عرشه، يدبر أمر عباده وحده، فلا خالق ولا رازق، ولا معطي ولا مانع، ولا مميت ولا محيي، ولا مدبر لأمر المملكة - ظاهرًا وباطنًا - غيره: فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا يجري حادث إلا بمشيئته ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا أحصاها علمه، وأحاطت بها قدرته ونزلت بها مشيئته واقتضتها حكمته»[٢].

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٤٩٩).

(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ٥١٠).

أما توحيد الألوهية فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن حقيقة التوحيد أن نعبد الله وحده. فلا يدعى إلا هو، ولا يخشى إلا هو، ولا يتقى إلا هو، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يكون الدين إلا له، لا لأحد من الخلق»[١].

ويبين ابن القيم حاجة البشرية إلى توحيد الله، وإلى هذا القسم من أقسامه خاصة فيقول: «اعلم أن حاجة العبد أن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا في محبته ولا في خوفه ولا في رجائه ولا في التوكل عليه، ولا في العمل له ولا في الحلف به، ولا في النذر له، ولا في الخضوع له، ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب، أعظم من حاجة الجسد إلى روحه والعين إلى نورها، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به.

فإن حقيقة العبد وروحه وقلبه لا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحًا فملاقيته، ولابد لها من لقائه، ولا صلاح

(١) «منهاج السنة» (٣/ ٤٩٠).

لها إلا بمحبتها وعبوديتها له، ورضاه وإكرامه لها»[(١)].

ويقول الشيخ سليمان بن عبد الله: «وهذا التوحيد هو أول الدين وآخره وباطنه وظاهره وهو أول دعوة الرسل وآخرها وهو معنى قول: لا إله إلا الله، فإن الإله هو المألوه المعبود بالمحبة، والخشية، والإجلال، والتعظيم، وجميع أنواع العبادة، ولأجل هذا التوحيد خلقت الخليقة، وأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفار، وسعداء أهل الجنة، وأشقياء أهل النار»[(٢)].

ويقول الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «أعظم الأصول التي يقررها القرآن ويبرهن عليها توحيد الألوهية والعبادة، وهذا الأصل العظيم أعظم الأصول على الإطلاق، وأكملها وأفضلها، وأوجبها وألزمها لصالح الإنسانية، وهو الذي خلق الله الجن والإنس لأجله،

(١) «طريق الهجرتين» ص: (٥٧، ٥٨).

(٢) «تيسير العزيز الحميد» ص (٣٦).

وخلق المخلوقات وشرع الشرائع لقيامه، وبوجوده يكون الصلاح، وبفقده يكون الشر والفساد وجميع الآيات إما أمر به أو بحق من حقوقه، أو نهى عن ضده، أو إقامة حجة عليه أو بيان جزاء أهله في الدنيا والآخرة، أو بيان الفرق بينهما وبين المشركين.

ويقال له: توحيد الإلهية فإن الإلهية وصفه تعالى الذي ينبغي أن يؤمن به كل بني آدم، وهو مستلزم جميع صفات الكمال.

ويقال له توحيد العبادة باعتبار وجوب ملازمة وصف العبودية بكل معانيها للعبد بإخلاص العبادة لله تعالى، وتحقيقها في العبد أن يكون عارفًا بربه مخلصًا له جميع عبادته محققًا ذلك بترك الشرك صغيره وكبيره»[(١)].

فالتوحيد هو الغاية من خلق الجن والإنس: قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: الآية ٥٦].

(١) «القواعد الحسان» ص: (١٩٢).

«قال شيخ الإسلام ابن تيمية: العبادة هي طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة الرسل.

وقال أيضًا: العبادة اسمُ جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه؛ من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة.

وقال ابن كثير: العبادة في اللغة من الذلة. يقال: طريق معبد وغير معبد، أي مذلل. وفي الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف»[(١)].

وقال السعدي: «هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها. وهي عبادته؛ المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه.

وذلك متوقف على معرفة الله تعالى، فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله.

بل كلما ازداد العبد معرفة بربه، كانت عبادته أكمل،

(١) انظر «تيسير العزيز الحميد» (٤٦، ٤٧).

فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم»[(١)].

والتوحيد هو الغاية من إرسال الرسل: قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: الآية ٣٦].

«فقد أخبر تعالى أنه بعث في كل أمة؛ أي في كل طائفة وقرن من الناس رسولًا بهذه الكلمة: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: الآية ٣٦] أي اعبدوا الله وحده، واتركوا عبادة ما سواه؛ فلهذا خلقت الخليقة، وأرسلت الرسل، كما قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: الآية ٢٥].

وهذه الآية هي معنى: لا إله إلا الله؛ فإنها تضمنت النفي والإثبات، كما تضمنته لا إله إلا الله؛ ففي قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: الآية ٧٢] إثبات، وفي قوله ﴿اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [الزمر: الآية ١٧] النفي.

(١) «تفسير السعدي» (٧/ ١٨١).

فدلت الآية على أنه لا بد في الإسلام من النفي والإثبات، فيثبت العبادة لله وحده، وينفي عبادة ما سواه، وهو التوحيد الذي تضمنته سورة ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [الكافِرون: الآية ١]».

إلى أن قال: «ودلت الآية على أن الحكمة في إرسال الرسل هو عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه؛ وأن أصل دين الأنبياء واحد، وهو الإخلاص في العبادة لله»[١].

«**والتوحيد هو معنى لا إله إلا الله**، الذي مضمونه أن لا يعبد إلا الله؛ لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، فضلًا عن غيرهما»[٢].

«قال ابن عباس في معنى الإله: «الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين» رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: الإله هو المعبود المطاع».

وقال أيضًا: «في لا إله إلا الله إثبات انفراده بالإلهية، والإلهية تتضمن كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته،

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٥٠، ٥١).

(٢) «تيسير العزيز الحميد» ص(٤٢).

ففيها إثبات إحسانه إلى العباد، فإن الإله هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد، وكونه يستحق أن يعبد، هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع.

وقال ابن رجب: «الإله هو الذي يطاع فلا يعصى هيبة له وإجلالًا ومحبة وخوفًا ورجاء وتوكلًا عليه وسؤالًا منه ودعاءً له، ولا يصلح ذلك كله إلا لله ﷻ، فمن أشرك مخلوقًا في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحًا في إخلاصه في قول: لا إله إلا الله، و نقصًا في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كله من فروع الشرك».

وقال البقاعي: «لا إله إلا الله، أي انتفي انتفاءً عظيمًا أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم، فإن هذا العلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة، وإنما يكون علمًا إذا كان نافعًا، وإنما يكون نافعًا إذا كان الإذعان والعمل بما يقتضيه، وإلا فهو جهل صرف».

وقال الوزير أبو المظفر السمعاني في «الإفصاح»: «قوله شهادة أن لا إله إلا الله» يقتضي أن يكون الشاهد عالمًا بأن لا إله إلا الله، كما قال الله ﷻ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: الآية ١٩]، وينبغي أن يكون الناطق بها شاهدًا فيها، فقد قال الله ﷻ ما أوضح به أن الشاهد بالحق إذا لم يكن عالمًا بما شهد به، فإنه غير بالغ من الصدق به مع من شهد من ذلك بما يعلمه، في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [الزخرف: الآية ٨٦].

قال: واسم الله تعالى مرتفع بعد «إلا» من حيث إنه الواجب له الإلهية، فلا يستحقها غيره سبحانه.

قال: واقتضى الإقرار بها أن تعلم أن كل ما فيه أمارة للحدث، فإنه لا يكون إلهًا، فإذا قلت: لا إله إلا الله، فقد اشتمل نطقك هذا على أن ما سوى الله ليس بإله، فيلزمك إفراده سبحانه بذلك وحده.

قال: وجملة الفائدة في ذلك أن تعلم أن هذه الكلمة هي مشتملة على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، فإنك لمّا

نفيت الإلهية وأثبتّ الإيجاب لله سبحانه، كنت ممن كفر بالطاغوت وآمن بالله»[(١)].

والتوحيد سببٌ لدخول العبد الجنة ونجاته من النار:

فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبد الله ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**»[(٢)].

وفي حديث عتبان قال ﷺ: «**فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**»[(٣)].

«اعلم أنه قد وردت أحاديث ظاهرها أنه من أتى بالشهادتين حرم على النار كهذا الحديث وغيره من الأحاديث...

---

(١) ما تقدم من النقول من «تيسير العزيز الحميد» (٧٤-٧٦).
(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٣٩) ومسلم رقم (٢٨).
(٣) أخرجه البخاري (١/ ١١٠)، ومسلم (١/ ٤٥٥).

وأحسن ما قيل في معناه ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره: إن هذه الأحاديث إنما هي فيمن قالها ومات عليها كما جاءت مقيدة، وقالها خالصًا من قلبه مستيقنًا بها قلبه، غير شاك فيها بصدق ويقين.

فإن حقيقة التوحيد انجذاب الروح إلى الله جملة، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصًا من قلبه؛ دخل الجنة؛ لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى؛ بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحًا، فإذا مات على تلك الحال نال ذلك»[1].

والحاصل أن «لا إله إلا الله» سبب لدخول الجنة، والنجاة من النار، ومقتضي لذلك، ولكن المقتضى لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه، أو لوجود مانع.

ولهذا قيل للحسن: إن ناسًا يقولون: من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، فقال: من قال: لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة.

(١) «تيسير العزيز الحميد» ص (٨٧).

وقال وهب بن منبه لمن سأله: أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: بلى، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان؛ فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح»[1].

والتوحيد سببٌ للأمن والسعادة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: الآية ٨٢].

قال السعدي: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ﴾ [الأنعام: الآية ٨٢] أي يخلطوا ﴿إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٨٢] الأمن من المخاوف، والعذاب والشقاء، والهداية إلى الصراط المستقيم فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقًا، لا بشرك ولا بمعاصى، حصل لهم الأمن التام، والهداية التامة وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية، وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها.

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٩٠، ٩١).

ومفهوم الآية الكريمة، أن الذين لم يحصل لهم الأمران، لم يحصل لهم هداية، ولا أمن بل حظهم الضلال والشقاء[١].

وقد مكث رسول الله ﷺ في مكة ثلاثة عشر عامًا يدعو إلى توحيد الله وحده لا شريك له وأوذي وعودي على أن يترك الدعوة إلى التوحيد، فماكان منه إلا أن ثبت على الحق حتى لقى الله ﷻ.

والقرآن من أوله إلى آخره دعوةٌ إلى التوحيد، يقول ابن القيم: «إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري.

وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يُعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي.

وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته ونهيه وأمره، فهي حقوق

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٤٢٦).

التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد.

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم»[١].

وقد كان النبي ﷺ يربي أصحابه ﭫ على التوحيد منذ الصغر، فعن ابن عباس ﭭ قال: كنت خلف النبي ﷺ فقال: «**يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**»[٢].

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٤٥٠).

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وكان النبي ﷺ يعلم أصحابه أن يبدءوا دعوتهم للناس بالتوحيد: فقد قال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن، قال: «**إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله**»[(١)] وفي رواية: «**إلى أن يوحدوا الله**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد علم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ، واتفقت عليه الأمة أن أصل الإسلام، وأول ما يؤمر به الخلق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله»[(٢)].

فهذا طرفٌ من شأن التوحيد وأهميته ومكانته في دين الإسلام نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من عباده الموحدين وأن يثبتنا عليه حتى نلقاه، وأن يحشرنا في زمرة الموحدين مع خاتم المرسلين.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) نقله عنه صاحب «تيسير العزيز الحميد» ص(١٢٧).

الشرك في اللغة

جاء في مقاييس اللغة: أن مادة «الشرك» المكونة من حرف «الشين والراء والكاف» لها أصلان:

أحدهما: يدل على مقارنة وخلاف انفراد، والآخر يدل على امتداد واستقامة، فالأول: الشركة وهو أن يكون الشيء بين اثنين لا ينفرد به أحدهما، ويقال: شاركت فلانًا في الشيء بين اثنين لا ينفرد به أحدهما، ويقال: شاركت فلانًا في الشيء إذا صرت شريكه، وأشركت فلانًا إذا جعلته شريكًا لك قال تعالى: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: الآية ٣٢].

وأما الثاني: فالشرك: لقم الطريق، وهو شراكه أيضًا، وشرك النعل مشبه بهذا، ومنه شراك الصائد سمي بذلك لامتداده[(١)].

وقال في اللسان: «الشركة والشركة سواء» مخالطة الشريكين يقال: اشتركنا بمعنى: تشاركنا، وقد اشترك

---

(١) مقاييس اللغة: (٣/ ٢٦٥).

الرجلان وتشاركا، وشارك أحدهما الآخر، والشريك المشارك، والشرك كالشريك، والجمع أشراك وشركاء»[١]

وجاء في تهذيب اللغة: «الشرك بمعنى الشريك وهو بمعنى النصيب وجمعه أشراك كشبر وأشبار». إهـ[٢].

وفي اللسان: «وطريق مشترك: يستوي فيه الناس، واسم مشترك تستوي فيه معان كثيرة»[٣].

وقال في الصحاح: «والشرك أيضًا: الكفر، وقد أشرك فلان بالله فهو مشرك ومشركي». اهـ[٤].

وجاء في تاج العروس: مبينًا ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ [النّحل: الآية ١٠٠] ومعناه: الذين صاروا مشركين بطاعتهم للشيطان، وليس المعنى أنهم آمنوا بالله وأشركوا بالشيطان، ولكن عبدوا الله وعبدوا معه الشيطان فصاروا بذلك مشركين

(١) لسان العرب (١٠/ ٤٤٨).

(٢) تهذيب اللغة (١٠/ ١٧).

(٣) لسان العرب (١٠/ ٤٤٩).

(٤) الصحاح (٤/ ١٥٩٣).

فهو مشرك ومشركي»[١].

وزاد في اللسان «مثل الشرك في الجاهلية وهو تلبيتهم حول الكعبة لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك «يعنون بالشريك الصنم». اهـ[٢].

وفي تهذيب اللغة: قال الليث: «شرك الصائد: حبائل الصيد، وكذلك ما ينصب للطير» وفي الحديث: «أعوذ بك من شر الشيطان وشركه»[٣] أي: حبائله ومصائده يعني ما يدعو إليه، وسوس به من الإشراك بالله تعالى[٤].

ومما تقدم يتبين أن مدلول كلمة «الشرك» تطلق على النصب والتسوية، والمخالطة والمصاحبة، والكفر، وحبائك الصيد والشبكة، والقاعدة المتبعة في اللغة العربية

(١) تاج العروس (٧/ ١٤٨).

(٢) لسان العرب (١٠/ ٤٥٠).

(٣) رواه الترمذي في سننه من حديث أبي هريرة (٥/ ١٣٤)، والدرامي في سننه (٢/ ٢٩٢).

(٤) تهذيب اللغة (١٠/ ١٨) تاج العروس (٧/ ١٤٩)، لسان العرب (١٠/ ٤٥٠).

أن الكلمات ذات المادة الواحدة، يكون فيما بينها ترابط وثيق وإذا تأملنا المدلولات السابقة لكلمة «الشرك» نلمس الترابط الواضح فيما بينها.

فالشرك أن يجعل غير الله مشاركًا له فيما هو من خالص حقه على عباده، ومن فعل هذا فقد سوى بين الله وبين من أشركه معه في العبادة بمعنى أنه اتخذ إلهًا آخر مع الله لأنه قصد غير الله بشيء من العبادة فجعله شريكًا لله في عبادته بقدر كبير، أو صغير في ذات، أو وصف.

الشرك في الاصطلاح

تنوعت عبارات العلماء في تحديده، وعلى الرغم من تنوعها فإن كل عبارة منها تكمل الأخرى.

فبعض أئمة اللغة جعله بمعنى الكفر.

قال صاحب القاموس: «وأشرك بالله كفر». إهـ[(١)].

(١) تهذيب اللغة (١٠/١٨) تاج العروس (٧/١٤٩)، لسان العرب (١٠/٤٥٠).

وجاء في تهذيب اللغة «الشرك أن تجعل لله شريكًا في ربوبيته تعالى الله عن الشركاء والأنداد». إهـ[(١)].

وقال الراغب: «وشرك الإنسان نوعان».

أحدهما: الشرك العظيم، وهو إثبات شريك لله تعالى يقال: أشرك فلان بالله وذلك أعظم كفر قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النِّساء: الآية ١١٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء: الآية ٤٨]

والثاني: الشرك الأصغر وهو: مراعاة غير الله في بعض الأمور وهو الرياء قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٦][(٢)].

فتعريف الشرك في الاصطلاح: «هو ضد التوحيد كالكفر ضد الإيمان وهو أن يجعل الإنسان لله شريكًا فيما هو من خالص حقه سبحانه مثل أن يتخذ إلهًا، أو آلهة يعبدها أو يطيعها، أو يستعين بها، أو يحبها، أو نحو ذلك مما

(١) (٣/٣١٨).

(٢) المفردات في غريب القرآن ص (٢٥٩-٢٦٠).

لا يستحقه إلا الرب جل وعلا فمن صدر منه هذا الاعتقاد فقد أشرك بالله العظيم وحبط عمله، ولا يصلح مع الشرك أي عمل إذ من شرط قبول العمل عند الله تعالى أن يكون خالصًا لوجهه الكريم ليس لغيره فيه حظ ولا نصيب»[١].

أنواع الشرك

ذكر أهل العلم أنه على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الشرك الأكبر.

النوع الثاني: شرك أصغر[٢].

وسنوضح فيما يلي أقسام الشرك؛ حتى يعرفها المسلم ويحذرها.

(١) انظر تجريد التوحيد للمقريزي ص (٢٧-٢٨)، تيسير العزيز الحميد ص (٢٧)، (توضيح المقاصد وتصحيح القواعد) (٢/ ٢٦٦).

(٢) انظر مدارج السالكين (١/ ٣٣٩).

الشرك الأكبر

قال العلامة ابن القيم مبينًا حقيقة الشرك الأكبر: «هو أن يتخذ من دون الله ندًا يحبه كما يحب الله وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين»[١]. وقال في تعريف آخر «هو تشبيه المخلوق بالله وتشبيهه بغيره»[٢].

وقال المقريزي رحمه الله «اعلم أن حقيقة الشرك تشبيه الخالق بالمخلوق وتشبيه المخلوق بالخالق أما الخالق فإن المشرك شبه المخلوق بالخالق في خصائص الإلهية وهي التفرد بملك الضر، والنفع والعطاء، والمنع فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق تعالى وسوى بين التراب، ورب الأرباب فأي فجور وذنب أعظم من هذا... هذا في جانب التشبيه وأما في جانب التشبه فمن تعاظم، وتكبر ودعا الناس إلى إطرائه ورجائه ومخافته فقد تشبه بالله

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٣٩).

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص (١٥٩) إغاثة اللهفان (٢/ ٢٢٦).

ونازعه في ربوبيته وهو حقيق بأن يهينه الله غاية الهوان ويجعله كالذر تحت أقدام خلقه وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «يقول الله ﷻ العظمة والكبرياء ردائي فمن نازعني في واحد منهما عذبته». اهـ[١].

وجاء في تيسير العزيز الحميد: «هو أن يجعل لله ندًا يدعوه كما يدعو الله ويسأله الشفاعة كما يسأل الله، ويرجوه كما يرجو الله و يحبه كما يحب الله ويخشاه كما يخشى الله، وبالجملة فهو أن يجعل لله ندًا يعبده كما يعبد الله». اهـ[٢].

والذي يتبين من هذه التعاريف المتقدمة للشرك الأكبر أن معنى الشرك الأكبر هو جعل الإنسان لربه تعالى مثيلًا، أو كفوءًا، أو نظيرًا، أو عديلًا، يتوجه إليه بالعبادة كما كان عليه أهل الجاهلية من المشركين مع أصنامهم، وأوثانهم التي اتخذوها من الأحجار والأشجار فصرفوا العبادة التي

(١) تجريد التوحيد ص (٢٧- ٢٨) والحديث رواه مسلم بلفظ «العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته (٤/ ٢٠٢٣).

(٢) تيسير العزيز الحميد ص (٢٧).

لا يستحقها إلا الله تعالى من دعاء، ونذر وذبح، وغير ذلك من أنواع العبادات.

وهذا ما عليه القبوريون حاليًا فإنهم يتوجهون إلى الموتى من أهل القبور ويناودونهم ويهتفون بهم ويستعينون بهم ويستغيثون، ويقربون لهم القرابين والنذور بصنوف الأموال، ويطلبون منهم الشفاعة، وشفاء المرضى وغير ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله تعالى وتجدهم يشدون إليهم الرحال ويحملون الزاد من البلدان والأقطار البعيدة.

وكما تبين مما تقدم أن من الشرك بالله تشبيهه بخلقه كقولهم: يد الله كيد المخلوق، وعينه كعينه إلى غير ذلك من أباطيل أهل الزيغ الذين يحاولون إخضاع النصوص لأهوائهم، ولا يخضعون أهواؤهم لها. وكذلك تشبيه المخلوق بالخالق كما زعم فرعون لقومه أنه ربهم الأعلى وكما فعلت السبئية أتباع عبد الله بن سبأ مع علي رضي الله عنه فادعوا نبوته وألوهيته وكما شبه بعض الزائغين من الناس الحاكم العبيدي بأنه إله، وأنه مشرع وأن حكمه خير من حكم الله تعالى.

أنواع الشرك الأكبر

الشرك الأكبر نوعان:

النوع الأول: شرك في الإلوهية.

النوع الثاني: شرك في الربوبية.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ «إن كان شركًا يكفر به صاحبه، وهو نوعان: شرك في الإلهية، وشرك في الربوبية»[(١)].

شرك الإلهية

«فأما الشرك في الإلهية: فهو أن يجعل لله ندًا -أي: مثلًا في عبادته أو محبته، أو خوفه، أو رجائه، أو إنابته، فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٨].

(١) مجموع الفتاوى: (١/ ٩١ - ٩٢).

وهذا هو الذي قاتل عليه رسول الله ﷺ مشركي العرب لأنهم أشركوا في الإلهية قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: الآية ١٦٥] وقال تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: الآية ٥]»[(١)]. . . .

شرك الربوبية

وأما النوع الثاني: فالشرك في الربوبية

«الرب سبحانه وتعالى هو الملك المدبر المعطي المانع الضار النافع الخافض الرافع المعز المذل فمن شهد أن المعطي أو المانع أو الضار أو المعز، أو المذل غيره فقد أشرك بربوبيته»[(٢)].

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٩١-٩٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٩١-٩٢).

تفاصيل نوعي الشرك بالله

وقال العلامة ابن القيم: مبينًا نوعي الشرك الأكبر:

«الشرك شركان:

الشرك الأول: شرك يتعلق بذات المعبود، وأسمائه وصفاته وأفعاله.

النوع الثاني: شرك في عبادته ومعاملته، وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه لا شريك له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

ثم إن القسم الأول نوعان:

أحدهما: شرك التعطيل وهو أقبح أنواع الشرك كشرك فرعون إذ قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢٣] وقال تعالى مخبرًا عنه أنه قال لهامان ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ والشرك والتعطيل متلازمان فكل مشرك

معطل، وكل معطل مشرك، لكن الشرك لا يستلزم أصل التعطيل، بل قد يكون المشرك مقرًا بالخالق سبحانه وصفاته ولكنه عطل حق التوحيد وأصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها هو التعطيل وهو ثلاثة أقسام:

الأول: تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه.

الثاني: تعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وأوصافه وأفعاله.

الثالث: تعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد، من هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود الذين يقولون: ما ثم خالق ومخلوق ولا هاهنا شيئان، بل الحق المنزه هو عين الخلق المشبه ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته، وأنه لم يكن معدومًا أصلًا، بل لم يزل ولا يزال والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها يسمونها بالعقول والنفوس ومن هذا شرك من عطل أسماء الرب تعالى وأوصافه، وأفعاله من غلاة الجهمية والقرامطة فلم يثبتوا له اسمًا ولا صفة

بل جعلوا المخلوق أكمل منه، إذ كمال الذات بأسمائها وصفاتها.

النوع الثاني: شرك من جعل مع الله إلهًا آخرًا ولم يعطل أسماءه وصفاته وربوبيته كشرك النصارى الذين جعلوه ثالث ثلاثة، فجعلوا المسيح إلهًا وأمه إلهًا.

ومن هذا شرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور وحوادث الشر إلى الظلمة.

ومن هذا القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذي يخلق أفعال نفسه وأنها تحدث بدون مشيئة الله وقدرته ولهذا كانوا أشباه المجوس.

ومن هذا شرك الذي حاج إبراهيم في ربه ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٨].

فهذا جعل نفسه ندًا لله يحيي ويميت بزعمه كما يحيي الله ويميت فألزمه إبراهيم أن طرد قولك أن تقدر على الإتيان بالشمس من غير الجهة التي يأتي بها الله منها، وليس هذا إنتقالًا كما زعم بعض أهل الجدل، بل إلزامًا

على طرد الدليل ان كان حقًا.

ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات ويجعل أربابًا مدبرة أمر هذا العالم كما هو مذهب مشركي الصابئة وغيرهم.

ومن هذا شرك عباد الشمس» اهـ[1].

وأما القسم الثاني:

وهو ما يتعلق بمعاملاته سبحانه فهو أربعة أنواع[2].

النوع الأول: شرك الدعوة وقد أشار الله سبحانه بقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: الآية ٦٥].

قال العلامة ابن جرير يقول تعالى ذكره: فإذا ركب هؤلاء المشركون السفينة في البحر فخافوا الغرق والهلاك فيه دعوا الله مخلصين له الدين يقول: أخلصوا لله عند

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص (١٥٢-١٥٤).
(٢) انظر الرسالة الأولى من (مجموعة التوحيد) ص (٦ - ٧).

الشدة التي نزلت بهم التوحيد وأفردوا له الطاعة، وأذعنوا له بالعبودية، ولم يستغيثوا بآلهتهم وأندادهم ولكن بالله الذي خلقهم ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ [العنكبوت: الآية ٦٥] يقول: فلما خلصهم مما كانوا فيه وسلمهم، فصاروا إلى البر إذ هم يجعلون مع الله شريكًا في عبادتهم ويدعون الإلهة والأوثان معه أربابًا.

قال قتادة ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٦٥] فالخلق كلهم يقرون لله أنه ربهم، ثم يشركون بعد ذلك». اهـ[1].

ومن تفسير ابن جرير للآية السابقة يتبين لنا أن شرك المشركين السابقين كان أخف من شرك المتأخرين إذا أولئك كان شركهم مقصورًا في حالة الرخاء أما في الشدة فكانوا يخلصون الدعاء لله وحده لا شريك له وأما مشركو زماننا فإنهم ينادون ويستغثيون بغير الله في الشدة والرخاء على حد سواء قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله «فاعلم

(١) جامع البيان (٢١/١٣).

أن شرك الأولين أخف من شرك أهل زماننا بأمرين:

أحدهما: أن الأولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة والأولياء مع الله إلا في الرخاء، وأما في الشدة، فيخلصون لله الدعاء كما قال تعالى ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ۝٦٧﴾ [الإسراء: الآية ٦٧].

إلى أن قال: «فمن هذه المسألة التي وضحها الله في كتابه وهي أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يدعون الله تعالى ويدعون غيره في الرخاء وأما في الضراء والشدة فلا يدعون إلا الله وحده لا شريك له، وينسون ساداتهم، تبين له الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك الأولين، ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهمًا جيدًا راسخًا؟ والله المستعان.

الأمر الثاني: أن الأولين يدعون مع الله أناسًا مقربين عند الله إما أنبياء أو أولياء وإما ملائكة، أو يدعون أحجارًا أو أشجارًا مطيعة لله ليست عاصية وأهل زماننا يدعون مع الله أناسًا من أفسق الناس، والذين يدعونهم هم الذين يحكون

عنهم الفجور من الزنا والسرقة وترك الصلاة وغير ذلك، والذي يعتقد في الصالح، أو الذي لا يعصي -مثل الخشب والحجر- أهون ممن يعتقد فيمن يشاهد فسقه وفساده ويشهد به». اهـ[(١)].

النوع الثاني: شرك المحبة كما ذكر الله عن بعض الناس بقوله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١٦٥].

قال العلامة ابن القيم: «فأخبر أن من أحب من دون الله شيئًا كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ من دون الله أندادًا فهذا ندًا في المحبة لا في الخلق والربوبية، فإن أحدًا من أهل الأرض لم يثبت هذا الند في الربوبية بخلاف ند المحبة فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أندادًا في الحب والتعظيم ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١٦٥] وفي تقدير الآية قولان:

أحدهما: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١٦٥]

(١) كشف الشبهات ص (٢٢٧) ضمن مجموعة التوحيد لشيخ محمد بن عبد الوهاب.

من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها ويعظمونها من دون الله.

الثاني: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١٦٥] من محبة المشركين بالإنداد لله فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهب أندادهم بقسط منها، والمحبة الخالصة، أشد من المشتركة، والقولان على القولين في قوله تعالى ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١٦٥] فإن فيها قولين:

أحدهما: يحبونهم كما يحبون الله فيكون قد أثبت لهم محبة الله ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أندادًا.

والثاني: أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله، ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يرجح القول الأول، ويقول: «إنما ذموا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له». اهـ[(١)].

(١) مدارج السالكين (٣/ ٢٠-٢١).

النوع الثالث: شرك الطاعة المذكور في قوله تعالى ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: الآية ٣١].

وفي الحديث عن عدي بن حاتم حين سمع رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: الآية ٣١] قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم؟ فقال: «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم»[(١)].

قال حذيفة بن اليمان وعبدالله بن عباس وغيرهما في تفسيرها: إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا.

قال ابن القيم: «وهذا من أعظم تلاعب الشيطان بالإنسان: أن يقتل أو يقاتل من هداه على يديه، ويتخذ من لم تضمن له عصمته ندًا لله يحرم عليه ويحلل له». اهـ[(٢)].

(١) رواه ابن جرير في تفسيره جامع البيان (١٠/ ١١٤) سنن الترمذي (٤/ ٣٤٢) وانظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٥).

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ٣١٩).

النوع الرابع: شرك النية والإرادة والقصد المشار إليه بقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود الآية ١٥ - ١٦].

وقال العلامة ابن القيم: وأما الشرك في الإرادات والنيات فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقل من ينجو منه فمن أراد بعلمه غير وجه الله ونوى شيئًا غير التقرب إليه، وطلب الجزاء منه، فقد أشرك في نيته وإرادته، والإخلاص: أن يخلص الله في أقواله وأفعاله وإرادته ونيته، وهذه هي الحنيفية ملة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم ولا يقبل من أحد غيرها وهي حقيقة الإسلام ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: الآية ٨٥].

وهي ملة إبراهيم من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء..» اهـ[(١)].

(١) الجواب الكافي ص (١٥٩).

الشرك الأصغر

الشرك الأصغر هو النوع الثاني من أنواع الشرك وقد أوضح تعريفه النبي ﷺ بقوله: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال الرياء**»[(١)].

وعند الحاكم من حديث أوس عن أبيه قال: «كنا نعد على عهد رسول الله ﷺ أن الرياء الشرك الأصغر»[(٢)].

والرياء الذي يعتبر شركًا إنما هو يسيره وليس بكثيره إذ الكثير منه قد يصل بصاحبه إلى الشرك الأكبر وهذا لا يصدر إلا من المنافقين الذين توعدهم الله بالدرك الأسفل من النار أو ممن لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه.

(١) رواه الطبراني في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٢) من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه قال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير شبيب وهو ثقة.

(٢) المستدرك (٤/ ٣٢٩) وصححه الحاكم وأقره على ذلك الذهبي.

قال ابن القيم: رحمه الله في تعريف الشرك الأصغر «وأما الشرك الأصغر فكيسير الرياء، والتصنع للخلق، والحلف بغير الله تعالى، وقول الرجل ما شاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك، وما لي إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله وعليك ولولا أنت لم يكن كذا، وقد يكون شركًا أكبر بحسب قائله ومقصده»[(١)].

قال في تيسير العزيز الحميد ففسر الشرك الأصغر باليسير من الرياء فدل على أن كثيره أكبر، وضد الشرك الأكبر والأصغر التوحيد والإخلاص وهو إفراد الله تعالى بالعبادة باطنًا وظاهرًا». اهـ[(٢)].

الفرق بين الشرك الأكبر والأصغر

أما الفرق بين الشرك الأكبر والأصغر فمن وجوه:

أولًا: أن الشرك الأكبر لا يغفر الله لصاحبه، وأما

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٤٤).

(٢) تيسير العزيز الحميد ص (٤٧٢).

الأصغر فتحت المشيئة.

الثاني: أن الشرك الأكبر محبط لجميع الأعمال، وأما الأصغر فلا يحبط إلا العمل الذي قارنه.

الثالث: أن الشرك الأكبر مخرج لصاحبه من ملة الإسلام، وأما الأصغر فلا يخرجه منها.

الرابع: أن الشرك الأكبر صاحبه خالد في النار، وأما الأصغر فكغيره من الذنوب، وقيل: «إنه لا يغفر لصاحبه إلا بالتوبة كالأكبر وهذا هو الصواب»(١).

أنواع الكفر

قال العلامة ابن القيم: «فأما الكفر فنوعان: كفر أكبر، وكفر أصغر، فالكفر الأكبر هو الموجب للخلود في النار والأصغر موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود»(٢).

(١) الكواشف الجلية شرح العقيدة الواسطية ص (٢٦٧).
(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٣٥).

الكفر الأكبر

الكفر الأكبر خمسة أنواع:

النوع الأول: كفر التكذيب

وهو اعتقاد كذب الرسل وهذا القسم قليلٌ في الكفار فإن الله تعالى أيد رسله، وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة وأزال به المعذرة.

قال تعالى في شأن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: الآية ١٤] وقال تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٣٣].

النوع الثاني: كفر إباء واستكبار.

مثل كفر إبليس اللعين؛ ومنه كفر من عرف الرسول ﷺ ولم ينفذ له إباءًا واستكبارًا وهو الغالب على كفر أعداء الرسل كما قال تعالى عن فرعون وقومه ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ٤٧].

ومنه كفر أبى طالب فإنه صدق الرسول ﷺ ولم يشك في صدقه ولكن أخذته الحمية، وكره أن يرغب عن ملة آبائه، أو أن يحكم بتكفيرهم.

النوع الثالث: كفر الإعراض

مثل أن يعرض عن الرسول ﷺ بحيث لا يسمعه ولا يصدقه ولا يكذبه، ولا يصغي إلى ما جاء به البتة كما قال أحد بني عبد ياليل للنبي ﷺ: «والله أقول لك كلمة: إن كنت صادقًا فأنت أجل في عيني من أن أرد عليك وإن كنت كاذبًا فأنت أحقر من أن أكلمك».

النوع الرابع: كفر الشك

حيث لا يجزم بصدق النبي ﷺ ولا يكذبه بل يشك في أمره، وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول ﷺ جملة، وأما مع التفاته إليها ونظره فيها فإنه لا يبقى معه شك لأنها مستلزمة للصدق.

النوع الخامس: كفر النفاق

وهو أن يظهر الإيمان بلسان وينطوي قلبه على تكذيب الرسول ﷺ، وهذا هو النفاق الأكبر(١).

الكفر الأصغر

النوع الثاني: من أنواع الكفر الكفر الأصغر، وهو لا يخرج من ملة الإسلام وذلك مثل كفر النعمة وقد ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: الآية ١١٢].

ومنه الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه من حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «اثنتان في الناس هما بهم كفر الطعن في النسب، والنياحة»(٢).

فمثل هذا كفر دون كفر لا يخرج من ملة الإسلام.

---

(١) ذكر هذه الأنواع العلامة ابن القيم في مدارج السالكين (١/ ٣٣٥- ٣٣٦).

(٢) صحيح مسلم (١/ ٨٢).

النفاق

جاء في الصحاح: «النافقاء إحدى حجرة اليربوع يكتمها ويظهر غيرها وهو موضع يرققه، فإذا أتى من قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فانتفق أي: خرج والنفقة أيضًا: مثال الهمزة النافقاء تقول منه: نفق اليربوع تنفيقًا ونافق أي أخذ في نافقائه، ومنه اشتقاق المنافق في الدين»(١).

وفي اللسان عن أبي عبيد قال «سمي المنافق منافقًا للنفق وهو السرب في الأرض وقيل: إنما سمي منافقًا لأنه نافق كاليربوع وهو دخوله نافقاءه يقال: قد نفق به، ونافق وله جحر آخر يقال له القاصعاء، فإذا طلب قصع فخرج من القاصعاء، فهو يدخل في النافقاء ويخرج من القاصعاء، أو يدخل في القاصعاء، ويخرج من النافقاء، فيقال هكذا يفعل المنافق يدخل في الإسلام ثم يخرج منه من غير الوجه الذي يدخل فيه»(٢).

(١) الصحاح (٤/ ١٥٦٠) والقاموس المحيط - (٣/ ٢٩٦).
(٢) لسان العرب (٢/ ٦١٨).

ومن هذا يتبين أن النفاق في اللغة: «إظهار الخير وإبطال الشر وأما حقيقته في الشرع: فهو إظهار الإيمان وإبطال الكفر وإخفاؤه»(١). والمتصفون بذلك موجودون في كل زمان ومكان.

أنواع النفاق

النفاق على نوعين:

النوع الأول: النفاق الاعتقادي.

النوع الثاني: النفاق العملي.

أما النوع الأول: وهو النفاق الإعتقادي فإنه مخرج لصاحبه من الملة.

وفيه يقول شيخ الإسلام ابن تيمية «والنفاق منه ما هو أكبر يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار كنفاق عبد الله ابن أبي وغيره، بأن يظهر تكذيب الرسول أو جحوده بعض

(١) لسان العرب (١٠/ ٣٥٩).

ما جاء به، أو بغضه، أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه أو المسرة بانخفاض دينه، أو المساءة بظهور دينه ونحو ذلك مما لا يمكن صاحبه إلا أن يكون عدوًا لله ورسوله»[١].

وجاء في مجموعة التوحيد:

«فأما الاعتقادي فهو ستة أنواع: تكذيب الرسول، أو تكذيب بعض ما جاء به أو بغض الرسول، أو بغض ما جاء به الرسول، أو المسرة بانخفاض دين الرسول أو الكراهية بانتصار دين الرسول»[٢].

وأما الضرب الثاني: وهو النفاق العملي فهو جريمة كبرى، وإثم عظيم وكبيرة من كبائر الذنوب، ولكنه لا يخرج صاحبه من ملة الإسلام وأنواعه كثيرة[٣].

قال ﷺ: «**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ومن كانت فيه**

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٣٤).

(٢) الرسالة الأولى من مجموعة التوحيد لشيخ الإسلام ابن تيمية والشيخ محمد بن عبد الوهاب وغيرهما.

(٣) انظر أنواع النفاق في مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٣٤٧).

خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا ائتمن خان وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

وفي رواية أخرى: «**وإذا وعد أخلف**»[١].

التحذير من الشرك وبيان أنه محبط للعمل

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٥].

بين الله تعالى أنه قد أوحى إلى نبينا محمد ﷺ وإلى كل إخوانه من الأنبياء ممن سبقوه بأنه لو صدر من أحدهم إشراك بالله وحاشا أن يصدر منهم ذلك لأن الله عصمهم من الوقوع في الإشراك به جل وعلا- ولكن هذا من باب فرض المستحيل غير الواقع- ولو حصل ذلك لكان سببًا في إحباط العمل وضياع الثواب ويصير صاحبه في ضمن

(١) رواه البخاري ومسلم، صحيح البخاري (١/ ١٥) صحيح مسلم (١/ ١٠٦).

الأشقياء الذين حرموا الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض.

وإذا كان هذا الخطاب موجهًا إلى أكرم الخلق وأحبهم إلى الله تعالى وهم الرسل الكرام وفي طليعتهم سيد الأولين والآخرين عليهم الصلاة والسلام فما البال بصدوره من غيرهم من بني الإنسان.

قال البغوي رحمه الله حول قوله ﷻ ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٥] يعني الذي عملته قبل الشرك وهذا خطاب مع رسول الله ﷺ والمراد منه غيره، وقيل هذا أدب من الله ﷻ لنبيه وتهديد لغيره لأن الله تعالى عصمه من الشرك. أهـ[١].

وقال ابن جرير رحمه الله حول الآية نفسها:

يقول تعالى ذكره ولقد أوحي إليك يا محمد ربك وإلى الذين من قبلك من الرسل لئن أشركت ليحبطن عملك بقول لئن أشركت بالله شيئًا يا محمد ليبطلن عملك، ولا تنال به

(١) تفسير البغوي وانظر حاشية تفسير الخازن (٦/ ٧٠).

ثوابًا ولا تدرك جزاء إلا جزاء من أشرك بالهل وهذا من المؤخر الذي معناه التقديم، ومعنى الكلام.

ولقد أوحي إليك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين وإلى الذين من قبلك، بمعنى وإلى الذين من قبلك من الرسل من ذلك، مثل الذي أوحي إليك منه فاحذر أن تشرك بالله شيئًا فتهلك، ومعنى قوله ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٥] ولتكونن من الهالكين بالإشراك بالله إن أشركت به شيئًا. اهـ[١].

ومثل قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٥] الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعَام: الآية ٨٨].

وهذا تشديد لأمر الشرك وتغليظ لشأنه وتعظيم لملابسته[٢].

(١) جامع البيان (٢٤/ ٢٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٣).

ولقد حذر الله من الشرك وبين عاقبته السيئة في مواضع كثيرة من كتابه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النِّساء: الآية ٤٨].

قال ابن كثير: «أخبر تعالى أنه لا يغفر أن يشرك به، أي: لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به، ويغفر ما دون ذلك أي: من الذنوب لمن يشاء من عباده». اهـ[(١)] «فتبين بهذا أن الشرك أعظم الذنوب لأن الله تعالى أخبر أنه لا يغفره أي إلا بالتوبة منه، وما عداه فهو داخل تحت مشيئة الله إن شاء غفره بلا توبة، وإن شاء عذب به وهذا يوجب للعبد شدة الخوف من الله من هذا الذنب الذي هذا شأنه عند الله»[(٢)] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المَائدة: الآية ٧٢].

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الدواوين عند الله ثلاثة: ديوان**

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٠٨).

(٢) تيسير العزيز الحميد ص (٩٠-٩١).

لا يعبأ الله به، وديوان لا يترك الله منه شيئًا، وديوان لا يغفره الله، فأما الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾، وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئًا فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه من صوم يوم تركه أو صلاة تركها فإن الله ﷻ يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئًا فظلم العباد بعضهم بعضًا القصاص لا محالة»[(١)].

قال العلامة ابن القيم: «ولما كان الشرك أعظم الدواوين الثلاثة عند الله ﷻ حرم الجنة على أهله فلا تدخل الجنة نفسٌ مشركةٌ وإنما يدخلها أهل التوحيد فإن التوحيد هو مفتاح بابها فمن لم يكن معه مفتاح لم يفتح له بابها، وكذلك إن أتى بمفتاح لا أسنان له لم يكن الفتح، وأسنان هذا المفتاح هي الصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وبر الوالدين». اهـ[(٢)].

(١) المسند (٦/ ٢٤٠).

(٢) الوابل الصيب ص: (١٨).

وقال تعالى آمرًا عباده باجتناب عبادة غيره من الأوثان والأصنام: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝٣١﴾.

هذه الآية توجيه للبشرية جمعاء بالابتعاد عن ملابسة كل طاغوت يعبد من دون الله تعالى- وفيها تصوير للأوثان بأنها رجس لوخامة ما ينتج عنها من الاعتقاد والفساد وقد قرن الله الأوثان بقول الزور لأن الشرك من باب الزور فإن المشرك يزعم أن الوثن تحق له العبادة وهذا أعظم أبواب الزور والافتراء. ولنستمع إلى ابن القيم وهو يصور لنا الاهتزازات التي تعتري الذين ارتكسوا في أوحال الوثنية وعبدوا غير الله تعالى ممن هم عبيد أمثالهم فقال رحمه الله في كلامه لبيان هذا المشهد في هذه الآية. فتأمل هذا المثل ومطابقته لحال من أشرك بالله وتعلق بغيره ويجوز لك في التشبيه أمران:

أحدهما: أن تجعله تشبيهًا مركبًا ويكون قد شبه من

أشرك بالله يرجى معه نجاة فصور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير في الهوى فتمزق مزقًا في حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة، وعلى هذا لا تنظر إلى كل فرد من أفراد المشبه، ومقابل من المشبه به.

والثاني: أن يكون من التشبيه المفرق فيقابل كل واحد من أجزاء الممثل بالممثل به وعلى هذا فيكون قد شبه الإيمان والتوحيد في علوه وسعته وشرفه بالسماء التي هي مصعده ومهبطه، فمنها هبط إلى الأرض، وإليها يصعد منها وشبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين من حيث التضييق الشديد والآلام المتراكمة والطير التي تخطف أعضاءه وتمزقه كل ممزق بالشياطين التي يرسلها الله سبحانه وتعالى عليه وتؤزه أزًا وتزعجه وتقلقه إلى مظان هلاكه، فكل شيطان له مزعة من دينه وقلبه كما أن لكل طير مزعة من لحمه وأعضائه والريح التي تهوي به في مكان سحيق هوهواه الذي يحمله على إلقاء نفسه في أسفل مكان وأبعده من السماء. اهـ[1].

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٨٠).

فكل ما تقدم من الآيات القرآنية وأقوال العلماء من التحذير من الشرك يوجب للإنسان أن يخاف على نفسه فإنه أعظم ذنب عصي الله تعالى به.

وقد ذكر الله عن خليله إبراهيم أبي الأنبياء عليه الصلاة والسلام أنه خاف على نفسه وبنيه من عبادة الأصنام مع أنه عليه الصلاة والسلام قد أكرمه الله بالعصمة من الشرك وغيره.

قال تعالى مخبرًا عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾.

قال في تيسير العزيز الحميد: «﴿وَٱجۡنُبۡنِي﴾ [إبراهيم: الآية ٣٥] أي اجعلني وبني في جانب عن عبادة الأصنام وباعد بيني وبينها قيل: وأراد بذلك بنيه وبناته من صلبه ولم يذكر البنات لدخولهم تبعًا في البنين، وقد استجاب الله دعاءه وجعل بنيه أنبياء وجنبهم عبادة الأصنام وإنما دعا إبراهيم عليه السلام بذلك لأن كثيرًا من الناس افتتنوا بها كما قال ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٦] فخاف

من ذلك ودعا الله أن يعافيه وبنيه من عبادتها، فإذا كان إبراهيم عليه السلام يسأل الله أن يجنبه ويجنب بنيه عبادة الأصنام فما ظنك بغيره؟ أهـ[1].

فإبراهيم عليه السلام هو الذي امتثل أمر ربه حين أمر بذبح ولده وهو الذي أخذ الفأس وحطم به الأصنام، وهو الذي اشتد نكيره على عبدة الأصنام والأوثان ومع ذلك يخاف على نفسه وبنيه الوقوع في الشرك الذي هو عبادة الأصنام لأنه يعلم أنه لا يصرف عن ذلك إلا بهداية الله جل وعلا وتوفيقه.

جاء في قرة عيون الموحدين: «فالذي خافه الخليل عليه السلام على نفسه وبنيه وقع فيه أكثر الأمة بعد القرون المفضلة فبنيت المساجد والمشاهد على القبور وصرفت لها العبادات بأنواعها. واتخذ ذلك دينًا وهي أوثان وأصنام كأصنام قوم نوح واللات والعزى ومناة وأصنام العرب وغيرهم، فما أشبه ما وقع في آخر هذه الأمة بحال أهل الجاهلية من مشركي العرب وغيرهم بل وقع ما هو أعظم

(١) ص (٩٢ - ٩٣).

من الشرك في الربوبية بما يطول عده»[١].

وقد حذر النبي ﷺ من الشرك وبين العاقبة السيئة التي تلحق المشرك إذا رجع إلى الله تعالى.

قال ﷺ: «من مات وهو يدعو من دون الله ندًا دخل النار»[٢].

وقال ﷺ: «من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار»[٣].

فقد بين ﷺ في هذين الحديثين أن من مات على الشرك لا يدخل الجنة ولا تناله رحمة الله ويكون من الخالدين في نار جهنم.

كما بين أن من مات على التوحيد دخل الجنة قال النووي: «أما دخول المشرك إلى النار فهو على عمومه، فيدخلها ويخلد فيها، ولا فرق فيه بين الكتابي اليهودي

(١) ص (٤٠).
(٢) رواه البخاري (٨/ ٧٦) مع الفتح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٣) رواه مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه (١/ ٩٤).

والنصراني، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة من المرتدين والمعطلين، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عنادًا وغيره، ولا بين من خالف ملة الإسلام وبين من انتسب إليها ثم حكم بكفره يجحده وغير ذلك، وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصرًا عليها دخل الجنة أولًا، وإن كان صاحب كبيرة مات مصرًا فهو تحت المشيئة، فإن عفا عنه دخل الجنة أولًا، وإلا عذب في النار ثم أخرج فيدخل الجنة». اهـ[١].

ومن هذا يتبين لنا أن الشرك اشد الأعمال جرمًا وأقبحها ظلمًا كما قال تعالى حكاية عن لقمان وهو يوصي ابنه ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ١٣].

وقد بين تعالى في موضع آخر بأنه لا أمن ولا اهتداء إلا لمن لم يخلطوا عبادتهم بمعصية الشرك.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: الآية ٨٢].

(١) شرح النووي على مسلم (٢/ ٩٧).

وقد روى الشيخان في صحيحهما من حديث ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين فقالوا يا رسول الله وأينا ذلك؟ قال: «**إنما هو الشرك ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه** ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾»[١] قال النووي عند شرحه «لهذا الحديث: لما شق عليهم أنزل الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: الآية ١٣].

وأعلم النبي ﷺ أن الظلم المطلق هناك هو المراد به هذا المقيد؛ وهو الشرك كما قال لقمان لابنه فالصحابة رضي الله عنهم حملوا الظلم على عمومه والمتبادر إلى الأفهام منه وهو وضع الشيء في غير موضعه وهو مخالفة الشرع فشق عليهم إلى أن أعلمهم النبي ﷺ بالمراد بهذا الظلم». اهـ[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله موضحًا لذلك: «والذي شق عليهم أنهم ظنوا أن الظلم المشروط عدمه هو ظلم العبد نفسه وأنه لا أمن ولا اهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه،

(١) صحيح البخاري (٣/ ١٧٣) صحيح مسلم (١/ ١١٤- ١١٥).
(٢) شرح النووي على مسلم (٣/ ١٤٣).

فبين لهم النبي ﷺ ما دلهم على أن الشرك ظلم في كتاب الله فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم فإن من لم يلبس إيمانه بهذا الظلم كان من أهل الأمن والاهتداء... فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة: الشرك، وظلم العباد، وظلمه لنفسه بما دون الشرك، كان له الأمن التام والاهتداء التام، ومن لم يسلم من ظلمه لنفسه كان له الأمن والاهتداء المطلق بمعنى:

أنه لابد من أن يدخل الجنة كما وعد الله بذلك وقد هداه الله إلى الصراط المستقيم الذي تكون عاقبته فيه إلى الجنة، ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه لنفسه، وليس مراد النبي ﷺ بقوله: «**إنما هو الشرك**» أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام فإن أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر معرضون للخوف لم يحصل لهم الأمن التام والاهتداء التام الذي يكونون بهما مهتدين إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من غير عذاب يحصل لهم، بل معهم أصل الاهتداء إلى هذا الصراط

ومعهم أصل نعمةا لله عليهم، ولا بد لهم من دخول الجنة، وقوله «**إنما هو الشرك**» إن أراد به الأكبر فمقصوده:

أن من لم يكن من أهله فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة، وإن كان مراده جنس الشرك يقال: ظلم العبد نفسه كبخله لحب المال ببعض الواجب، هو شرك أصغر، وحبه ما يغضب الله تعالى حتى يقدم هواه على محبة الله شرك أصغر ونحو ذلك فهذا فاته من الأمن والاهتداء بحسبه ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب في هذا الشرك بهذا الاعتبار». اهـ[(١)].

ومن هذا يعلم أن الشرك بالله أظلم الظلم وأشد ذنب عصى الله به ولذلك رتب الله عليه من العقوبات الدنيوية والآخروية ما لم يرتب على ذنب سواه من إباحة دماء أهله، وأموالهم وسبي نسائهم وأولادهم وعدم مغفرته من بين الذنوب إلا بالتوبة منه»[(٢)].

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٨٠-٨١).

(٢) تيسير العزيز الحميد ص (٨٩) بتصرف يسير.

قال في تيسير العزيز الحميد «وإنما كان كذلك لأنه أقبح القبح وأظلم الظلم إذ مضمونه تنقيص رب العالمين، وصرف خالص حقه لغيره، وعدل غيره به كما قال تعالى ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١] ولأنه مناقض للمقصود بالخلق والأمر مناف له من كل وجه و ذلك غاية المعاندة لرب العالمين، والاستكبار عن طاعته والذل له والإنقياد لأوامره الذي لا صلاح للعالم إلا بذلك فمتى خلا منه خرب وقامت القيامة كما قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله»[(١)].

«ولأن الشرك تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى وتقدس في خصائص الإلهية من ملك الضر والنفع، والعطاء، والمنع الذي يوجب تعلق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل وأنواع العبادة كلها بالله، فمن علق ذلك لمخلوق فقد شبهه بالخالق وجعل من لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا فضلًا عن غيره شبيهًا بمن له الخلق كله وله الملك كله وبيده الخير كله واليه يرجع الأمر كله.

(١) رواه مسلم من حديث أنس رضي الله عنه (١/ ١٣١).

فأزمة الأمور كلها بيديه سبحانه ومرجعها إليه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن». اهـ[١].

كما يفهم من هذا أن المشرك لم يقدر الله حق قدره، ولم يأت بالأمر الذي خلق من أجله فهو ظالم من جهة أنه صرفا لحق الذي لا يستحقه إلا الله تعالى للمخلوق الذي لا يستحق من ذلك شيئًا لأنه ليس أهلًا لذلك.

كما أن المشرك ظالم لنفسه حيث يشقيها بإشراكه بالله تعالى ويحرمها رحمة الله ويجعلها تتذلل لمخلوق من مخلوقات الله فقير إلى الله الذي له الغنى المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات.

الفرق بين المشرك والموحد

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٩].

(١) تيسير العزيز الحميد ص: (٩١).

الفرق الشاسع بين الموحد والمشرك تصوره الآية تصويرًا دقيقًا جعلته كأنه محسوس ملموس، ويدل ذلك على قبح الشرك في النفوس والعقول السليمة، والفطر المستقيمة.

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالى ذكره: مثل الله مثلًا للكافر بالله الذي يعبد آلهة شتى ويطيع جماعة من الشياطين، والمؤمن الذي لا يعبد إلا الله الواحد».

يقول تعالى ذكره: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ لهذا الكافر ﴿رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ يقول هو بين جماعة مالكين ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾ يعني مختلفين متنازعين سيئة أخلاقهم من قولهم رجل شكس: إذا كان سيئ الخلق وكل واحد منهم يستخدمه بقدر نصيبه وملكه ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٩] يقول ورجلًا خلوصًا لرجل يعني المؤمن الموحد الذي أخلص عبادته لله لا يعبد غيره ولا يدين لشيء سواه بالربوبية.

قال عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٩] الآية قال: الشركاء المتشاكسون الرجل الذي يعبد الآلهة شتى كل قوم يعبدون إلهًا يرضونه ويكفرون بما سواه من الآلهة فضرب

الله هذا المثل لهم وضرب لنفسه مثلًا يقول: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٩] يقول: يعبدون إلهًا واحدًا لا يختلفون فيه.

وقال قتادة: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٩] قال: هذا المشرك تتنازعه الشياطين لا يقربه بعضهم لبعض ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٩] قال: هو المؤمن أخلص الدعوة والعبادة وقال مجاهد: ﴿رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٩] قال: هذا مثل إله الباطل، وإله الحق.

وقال السدى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٩] قال: مثل لأوثانهم التي كانوا يعبدون...

وقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هُود: الآية ٢٤] يعني هل يستوي مثل هذا الذي يخدم جماعة شركاء سيئة أخلاقهم مختلفة فيه لخدمته مع منازعته شركاءه فيه والذي يخدم واحدًا لا ينازعه فيه منازع إذا أطاعه عرف له موضع طاعته وأكرمه، وإذا أخطأ صفح له عن خطئه يقول: «فأي هذين

أحسن حالًا وأروح جسمًا وأقل تعبًا ونصبًا».اهـ[١].

قال العلامة ابن القيم رحمه الله حول هذه الآية: «هذا مثل ضربه الله سبحانه للمشرك والموحد، فالمشرك بمنزلة عبد يملكه جماعة متنازعون مختلفون متشاحنون، والرجل الشكس الضيق الخلق فالمشرك كما كان يعبد آلهة شتى بعيد يملكه جماعة متنافسون في خدمته لا يمكنه أن يبلغ رضاهم أجمعين، والموحد لما كان يعبد الله وحده فمثله كمثل عبد لرجل واحد قد سلم له، وعلم مقاصده وعرف الطريق إلى رضاه فهو في راحة من تشاحن الخلطاء فيه، بل هو سالم لمالكه من غير تنازع فيه مع رأفة مالكه به ورحمته له وشفقته عليه، وإحسانه إليه وتوليه لمصالحه فهل يستوي هذان العبدان، وهذا من أبلغ الأمثال فإن الخالص لمالك واحد يستحق من معونته وإحسانه والتفاته إليه وقيامه بمصالحه ما لا يستحق صاحب الشركاء المتشاكسين ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النّحل: الآية ٧٥]. اهـ[٢].

(١) جامع البيان (٢٣/ ٢١٣/ ٢١٤).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٨٧).

وقال في موضع آخر: «احتج سبحانه على قبح الشرك بما تعرفه العقول من الفرق بين حال مملوك يملكه أرباب متعاسرون سيئوا الملكة وحال عبد يملكه سيد واحد قد سلم كله له فهل يصح في العقول استواء حال العبدين؟ فكذلك حال المشرك والموحد قد سلمت عبوديته لإلهه الحق لا يستويان» .اهـ[(١)].

وأما العلامة ابن كثير فقد قال حول الآية ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٩] أي يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٩] أي سالمًا «لرجل» أي خالصًا لا يملكه أحد غيره ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هُود: الآية ٢٤] أي لا يستوي هذا وهذا، كذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له فأين هذا من هذا؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهدًا وغير واحد هذه الآية ضربت مثلًا للمشرك والمخلص، ولما كان هذا المثل ظاهرًا بينًا جليًا قال ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٢] أي لإقامة الحجة

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٤٠).

عليهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النّحل: الآية ٧٥] أي فلهذا يشركون بالله. اهـ[(١)].

ومما تقدم يتبين لنا أن المؤمن الذي يعبد الله وحده لا شريك له، لا شك أنه أحسن حالًا وأهدأ بالًا وأقل تعبًا ونصبًا من ذلك المشرك الذي خالف عقله وفطرته وأمر ربه، واتجه بالعبادة إلى الأولياء والشركاء الذين لم يأذن الله بعبادتهم بل جعل ذلك من أقبح القبيح وأظلم الظلم وأن الكافر لا يمكن أن يستقر له قرار ولا يطمئن له قلب ولا تهدأ له نفس بعكس المؤمن الذي أخلص لله في عبادته فهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة لأنه لم يعمل ما فيه مضادة لأمر الله أو ما فيه مخالفة للعقل والفطرة، فلقد أنكر الله سبحانه قبح الشرك به في الإلهية وعبادة غيره معه بما ضربه لعباده من الأمثال وأقام على بطلانه الكثير من الأدلة العقلية والسمعية التي يتذكر بها أولو الألباب. ولقد جاءت آيات كثيرة في معنى الآية التي معنا من ذلك قوله تعالى ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٩٠).

شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرُّوم: الآية ٢٨].

هذه الآية احتج الله فيها على عباده بما هو مستقر في عقولهم من قبح كون مملوك أحدهم شريكًا له فكأنه يقول لهم: إذا كان أحدكم يستنكف أن يكون مملوكه شريكًا له، ولا يرضى بذلك، فكيف تجعلون لله من عباده شركاء تعبدونهم كعبادته؟ فالآية توضح لنا أن قبح عبادة غير الله تعالى مستقر في العقول والفطر، والشرع نبه العقول وأرشدها بما هو مودع وكامن فيها من قبح ذلك قال العلامة ابن القيم: حول هذه الآية «وهذا دليل قياس احتج الله سبحانه به على المشركين حيث جعلوا له من عبيده وملكه شركاء فأقام عليهم حجة يعرفون صحتها من نفوسهم، لا يحتاجون فيها إلى غيرهم، ومن أبلغ الحجاج أن يأخذ الإنسان من نفسه ويحتج عليه بما هو في نفسه مقرر عنده معلوم لها فقال ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم﴾ [الرُّوم: الآية ٢٨] من عبيدكم وإمائكم شركاء في المال والأهل؟ أي هل يشارككم عبيدكم في أموالكم وأهليكم فأنتم وهم في ذلك سواء

تخافونهم أن يقاسموكم أموالكم ويشاطروكم إياها ويستأثرون ببعضها عليكم كما يخاف الشريك شريكه».

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «تخافون أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضًا والمعنى هل يرضى أحد منكم أن يكون عبده شريكه في ماله وأهله حتى يساويه في التصرف في ذلك فهو يخاف أن ينفرد في ماله بأمر يتصرف فيه كما يخاف غيره من الشركاء الأحرار؟

فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم فلم عدلتم بي من خلقي من هو مملوك لي؟

فإن كان هذا الحكم باطلًا في فطركم وعقولكم مع أنه جائز عليكم ممكن في حقكم إذ ليس عبيدكم ملكًا لكم حقيقة وإنما هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم وأنت وهم عبيد لي فكيف تستجيزون مثل هذا الحكم في حقي مع أن من جعلتموهم لي شركاء عبيدي وملكي وخلقي؟ فهكذا يكون تفصيل الآيات لأولي العقول. اهـ[1].

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٥٩).

ومن الأمثال التي ضربها الله تعالى لقبح الإشراك به قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [النّحل: الآية ٧٥].

هذه الآية تضمنت مثلًا لقبح الشرك والتنفير منه فقد ضرب الله سبحانه فيها مثلًا لنفسه وللأوثان فالله سبحانه هو الذي يملك كل شيء، وهو الذي ينفق على عباده كيف يشاء ليلًا ونهارًا، سرًا وجهارًا يمينه ملآى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار.

أما الأوثان فهي عاجزة مملوكة ليس له القدرة على أي شيء وما دام حالها على هذا كيف تجعلونها شركاء لله وتعبدونها من دونه مع هذا التفاوت المبين والفرق العظيم، وهذا هو معنى تفسير مجاهد وغيره لهذه الآية الكريمة[(١)].

وأما عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فإنه قال: إن هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، ومثل المؤمن في الخير الذي عنده ثم رزقه منه رزقًا حسنًا فهو ينفقه منه على نفسه وعلى غيره سرًا

(١) جامع البيان (١٤/ ١٤٩).

وجهرًا، والكافر بمنزلة عبد مملوك عاجز لا يقدر على شيء لأنه لا خير عنده فلا مساواة بين الرجلين عند أحد من ذوي الألباب[(١)].

قال العلامة ابن القيم «والقول الأول أشبه بالمراد فإنه أظهر في بطلان الشرك وأوضح عند المخاطب، وأعظم في إقامة الحجة، وأقرب نسبًا بقوله ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ ثم قال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [النّحل: الآية ٧٥] ومن لوازم هذا المثل وأحكامه أن يكون المؤمن الموحد كمن رزقه منه رزقًا حسنًا، والكافر المشرك كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، فهذا مما نبه عليه المثل وأرشد إليه، فذكر ابن عباس منبهًا على إرادته لا أن الآية اختصت به فتأمله». اهـ[(٢)].

(١) جامع البيان (١٤/ ١٤٩)، تفسير ابن كثير (٤/ ٢١١).
(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٦١).

ومن الأمثال التي ضربها الله لقبح الإشراك به سبحانه وتعالى ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٦﴾ [النحل: الآية ٧٦] وفي هذه الآية ضرب الله سبحانه فيها لنفسه وللأصنام المعبودة من دونه مثلًا، الذي يعبد من دونه إنما هو بمثابة رجل أبكم لا يعقل، ولا ينطق بل هو أبكم القلب واللسان قد عدم النطق القلبي واللساني، إضافة إلى ذلك أنه عاجز لا يقدر على شيء ألبتة، ومع هذا فأينما وجه لا يأتي بخير ولا يقضي حاجة لمن أرسله.

أما الله تعالى فإنه الحي القادر المتكلم الآمر بالعدل وهو على الصراط المستقيم وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد فإنه سبحانه الآمر بالعدل وهو الحق «وذلك يتضمن أنه سبحانه علام به، معلم له راض به آمر لعباده به محب لأهله لا يأمر بسواه بل هو سبحانه منزه عن ضده الذي هو الجور والظلم والسفه، والباطل، بل أمره وشرعه عدل كله وأهل العدل هم أولياؤه وأحباؤه وهم المجاورون له عن يمينه على منابر من نور، وأمره بالعدل يتناول الأمر الشرعي

الديني، والأمر القدري الكوني، وكلاهما عدل لا جور فيه بوجه ما»[(١)] ومن كانت هذه صفاته هو الجدير بأن يعبد وحده لا شريك له ويخلص له الدين كله ومما تقدم يتبين لنا قبح الشرك سمعًا وعقلًا فطرة كما يتبين لنا:

١- إن الموحد لا يكون عنده ضيق نظر بخلاف المشرك الذي يعبد آلهة شتى أو يجحدها بالكلية.

٢- إن الموحد تنشأ في نفسه العزة والقوة التي لا يقف أمامها شيء لأنه أيقن في نفسه بأنه لا نافع ولا ضار إلا الله وأنه سبحانه المحيي المميت، وأنه صاحب القهر والحكم والسلطان في هذا الكون وهنا ينزع من قلبه كل خوف من غير الله تعالى فتجده لا يطأطئ رأسه لأحد من الخلق، ولا يتضرع إليه ولا يسأله ولا يخاف من كبريائه وعظمته لأنه استقر في نفسه عظمة القادر سبحانه وهذا بخلاف المشرك، والكافر ومن تربى على الإلحاد.

٣- أن الموحد لربه جل وعلا يتولد في نفسه مع العزة والقوة: تواضع دون ذل وترفع من غير كبر حتى أن

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٦٢).

الشيطان لا يلقى إليه سبيلًا، لأن يلقي في نفسه الأخلاق الذميمة إذ أنه يعلم بيقين أن الله تعالى هو الذي وهبه كل ما عنده من النعم وهو القادر على سلبه إياها في أي لحظة شاء، أما المشرك فإنه يوجد لديه من الأخلاق الذميمة التي هي كفيلة بإهلاكه مثل الكبر وبطر الحق بمجرد حصوله على نعمة سريعة الزوال بين حين وآخر.

٤- إن الموحد موقن تمام اليقين بأنه لا سبيل إلى النجاة والفلاح إلا بتطهير نفسه من كل معصية لله ﷻ بالعمل الصالح أما المشرك والكافر فإنه يمضي حياته كلها في الأماني الكاذبة كما يزعم النصارى بأن المسيح عليه الصلاة والسلام أصبح كفارة لذنوبهم، وكما يزعم اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه فلا يعذبهم بذنوبهم، وكما يعتقد بعض جهلة المسلمين أن الكبراء والأتقياء من أهل الصلاح سيشفعون لهم عند الله تعالى فيقدمون لهم النذور والقرابين في المواسم، ثم يستمرون في مخالفة الأوامر والنواهي، اتباعًا للهوى والشهوات الشيطانية.

٥- إن الذي أقر لله بالوحدانية وأفرده بالعبادة والطاعة

لا يتسرب إليه يأس ولا يحل به القنوط؛ لأنه يؤمن بأن خزائن السموات والأرض بيد الله وحده دون سواه، ومن هنا يكون مطمئنًا تغمره السكينة والأمل، حتى ولو نزل به ألوان من الهوان، والطرد من قبل أعداء الله فإنه لا تضيق به طرق العيش إذ أنه يوقن بأن الله يكلؤه ولا يسلمه إلى نفسه مع بذله جهده في التوكل على خالقه وبارئه سبحانه أما الكافر أو المشرك فإنه يعتمد على طاقته المحدودة فإذا ما نزل به أمر فسرعان ما يحل به اليأس والقنوط في الشدائد بل ربما يؤدي به حاله إلى الانتحار.

٦- إن المؤمن بالله يتربى على الشجاعة والعزم والتوكل والثبات عندما يقدم على أمور يريد بها وجه الله تعالى كالجهاد في سبيل الله والمرابطة في ثغور الإسلام إذ أنه يشعر في قرارة نفسه بأنه يستمد قوته ونصره من مالك السموات والأرض وما بينهما فلا يكون هناك مثيل لموقفه وثباته وأنى للمشرك والكافر في مثل هذا الموقف تلك القوة والثبات التي يؤيد الله بها أولياءه.

٧- إن الذي يؤمن بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ

نبيًا ورسولًا يكون قوي الجانب فلا مكانة للجبن والوهن لديه إذ الجبن وضعف العزم يتولد من أمرين: حب الإنسان نفسه وماله وأهله، واعتقاده أن غير الله له القدرة على سلب الحياة لكن المؤمن بالله حق الإيمان ينفي من قلبه كلا الأمرين السابقين فهو موقن بأن الله هو المالك الحقيقي للإنسان ونفسه وماله وأهله فهو يضحي في سبيل الله بكل غال ورخيص في سبيل الحصول على مرضاة الله تعالى كما أنه موقن بأنه ليس في مقدور الخلق أجمعين سلب الحياة إلا بقضاء الله وقدره، ونتيجة الإيمان الصادق فإن المؤمن حينما يلتقي بجيش الكفر لا يهاب كثرته ولا يخاف قعقعة السيوف فهو يواجه أعداء الله مقبلًا غير مدبر لأنه يؤمن أن إطالة العمر وانقضاء الأجل إنما هو بيد الله وحده.

٨- أن الإيمان بأنه لا معبود بحق إلا الله تعالى يرفع من قدر العبد؛ فلا توجد فيه الخصال الذميمة مثل الدناءة واللؤم والشره والحسد وغيرها من الصفات القبيحة شرعًا وعقلًا وفطرة؛ لأن الإسلام يبغض هذه الخلال وحذر منها أشد تحذير.

٩- إن التوحيد الخالص والإقرار الصحيح بـ «لا إله إلا الله» قولًا وعملًا، واقتضاء معنى يجعل المرء ملتزمًا بشرع الله، ومحافظًا عليه إذ المرء عندما يؤمن بأن ربه بكل شيء عليم وأن معه من الملائكة من هو رقيب وعتيد وأنه إذا كان لديه حيلة في التفلت من بطش البشر فإنه ليس له قدرة على التخلص من الله ﷻ وعلى قدر قوة الإيمان وضعفه يكون التزام العبد بأحكام الله واقفًا عند حدوده فلا تكون عنده جرأة على اقتراف الآثام وانتهاك المحارم بل يكون مسارعًا إلى فعل الخيرات بعكس المشرك والكافر والملحد فإن حياته كلها في الوقوع فيما يغضب الله تعالى[1].

أصل الشرك

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣].

(١) انظر، القول السديد في وجوب الاهتمام بالتوحيد، للمؤلف.

هذه الآية فيها بيان لأصل الشرك والدافع إليه عند المشركين قديمًا وحديثًا، وفيها توضيح لحال المتخذين من دون الله تعالى الأولياء والشركاء، وأن الذي تقرر في قلوب المشركين المتقدمين والمتأخرين أن آلهتهم تشفع لهم عند الله تعالى ويزعمون أنها تقربهم إلى الله تعالى برفع حوائجهم إليه والشفاعة عنده وإلا فهم يعتقدون أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تملك من الأمر شيئًا وهذا كما هو معلوم من أقبح الأعذار لإقدامهم على أشد المحرمات وارتكاب أعظم المنكرات وهو الشرك بالله العظيم، ولذلك جاءت الآية مذيلة بالحكم عليهم بأنهم كاذبون، وكفار وأنه تعالى لا يهديهم فهذه حال من اتخذ من دون الله وليًا أو شريكًا.

قال ابن جرير رحمه الله حول هذه الآية. يقول تعالى ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣] يتولونهم ويعبدونهم من دون الله يقولون ما نعبدكم أيها الآلهة إلا لتقربونا إلى الله زلفى، قربة ومنزلة وتشفعوا لنا عنده في حاجتنا.

قال مجاهد: قريش تقوله للأوثان ومن قبلهم يقوله للملائكة ولعيسى بن مريم ولعزيز[(١)].

وقال العلامة ابن كثير: حول قوله تعالى: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣] ثم أخبر ﷻ عن عباد الأصنام من المشركين أنهم يقولون ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣] أي إنما يحملهم على عبادتهم لها أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم فعبدوا تلك الصور تنزيلًا لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الدنيا فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به قال قتادة والسدي ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد: إلا ليقربونا إلى الله زلفى أي ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه وبعث الرسل صلوات الله وسلامه

(١) جامع البيان عن تأويل أي القرآن (٣٣/ ١٩١).

عليهم أجمعين بردها والنهي عنها والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم لم يأذن الله فيه ولا رضى به بل أبغضه ونهى عنه ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: الآية ٣٦].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٢٥] وأخبر أن الملائكة التي في السموات من الملائكة المقربين وغيرهم كلهم عبيد خاضعون لله اهـ[1].

وقال الشوكاني: والضمير في «نعبدهم» راجع إلى الأشياء التي كانوا يعبدونها من الملائكة وعيسى والأصنام وهم المرادون بالأولياء والمراد بقولهم: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: الآية ٣] الشفاعة كما حكاه الواحدي عن المفسرين. اهـ[2].

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٧٨).

(٢) فتح القدير (٤/ ٤٤٩).

قال العلامة جمال الدين القاسمي في محاسن التأويل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الزمر: الآية ٣] أي بالمحبة، للتقرب والتوسل بهم إلى الله تعالى ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: الآية ٣] أي يقولون ذلك احتجاجًا على ضلالهم إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون أي عند حشر معبوداتهم معهم فيقرن كلًا منهم مع من يتولاه من عابد ومعبود ويدخل المبطل النار مع المبطلين كما يدخل المحق الجنة مع المحقين. اهـ[1].

فالآية بينت أن أصل الشرك في المشركين من بني آدم إنما كان نتيجة الغلو في المخلوق ورفعه فوق منزلته ويشهد لهذا ما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجوف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، وهي أسماء رجال صالحين من

(١) محاسن التأويل (١٤/ ١٩٥).

قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأصل الشرك في بني آدم كان من الشرك بالبشر الصالحين المعظمين، فإنهم لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم ثم عبدوهم، فهذا أول شرك كان في بني آدم، وكان في قوم نوح فإنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض يدعوهم إلى التوحيد، وينهاهم عن الشرك كما قال تعالى ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ﴾ وهذه أسماء قوم صالحين في قوم نوح فلما ماتوا جعلوا الأصنام على صورهم ثم ذهبت هذه الأصنام لما أغرق الله أهل الأرض ثم صارت إلى العرب كما ذكر ابن عباس وغيره إن لم يكن أعيانها هي نظائرها». اهـ[2].

(١) (٣/ ٢٠٨).
(٢) الحسنة والسيئة (١١٣- ١١٤).

وقال ابن جرير الطبري، عند قوله تعالى ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [نوح: الآية ٢٣] الآية قال: كانوا قومًا صالحين من بني آدم لهم أتباع يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: «إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم»[1] هذا من أعظم كيد إبليس وهو جعله الإنسان يشرك بالله غيره فإنه يأتي للإنسان بأخبث الحيل، وأعظم المكر فإنهم عن طريق العاطفة الدينية، وبما يؤملون من جلب النفع حتى جعلهم مشركين يعبدون غير الله تعالى ويطلبون المطالب التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى ممن لا يملك للوقوع في أصل الشرك فتماثيل الصالحين من أكبر الطرق وأسرعها وقوعًا في قلوب الناس للوقوع في أصل الشرك ولذلك اعتبر الشرع أن من يفعل هذا العمل إنما هو شرار الخلق عند الله تعالى روى البخاري في صحيحه من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «لما اشتكى النبي ﷺ ذكرت بعض نسائه كنيسة رأينها بأرض الحبشة يقال لها:

(١) جامع البيان (٢٩/ ٩٩).

مارية وكانت أم سلمة وأم حبيبة رضي الله عنهما أتتا أرض الحبشة فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها فرفع رأسه فقال: أولئك إذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا ثم صوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله»[(١)].

وما أكثر شرار الخلق في زماننا فإن الكثير من المسلمين تجاهلوا هذا التحذير البليغ والتهديد فبنوا المساجد والقباب على القبور وتجد الجهلة من المسلمين يتحرون الصلاة فيها وعندها، يتوسلون بها، ويدعونها من دون الله، وينذرون لها ويذبحون لها، ويوقدون الشموع والسرج عندها، ويطلبون منها شفاء مرضاهم، ورد غائبهم، ويعكفون عندها ويطوفون حولها، ويطلبون منها الغوث والمدد، وتجد أحدهم يجري على لسانه ذكر صاحب القبر كلما قام أو قعد أو سقط وهذه الأمور هي بعينها التي كان يفعلها مشركوا الجاهلية، بل هؤلاء أشد منهم عبادة وتعظيمًا، وهذا أصل الشرك وعينه الذي حذر الله عنه عباده ونهاهم عن الوقوع فيه، وحرم على من مات عليه الجنة.

---

(١) صحيح البخاري (٣/ ٢٠٨) مع الفتح.

قال صاحب تيسير العزيز الحميد: بعد أن ذكر قصة أصنام نوح: «فتبين أن مبدأ الشرك بالصالحين هو الغلو فيهم كما أن سبب الشرك بالنجوم هو الغلو فيها واعتقاد النحوس فيها والسعود، ونحو ذلك وهذا هو الغالب على الفلاسفة ونحوهم وهو أصل عبادة الأصنام فإنهم عظموا الأموات تعظيمًا مبتدعًا، فصوروا صورهم وتبركوا بها فآل الأمر إلى أن عبدت الصورة ومن «هي» صورته، وهذا أول شرك حدث في الأرض وهو الذي أوحاه الشيطان إلى عباد القبور في هذه الأزمان فإنه ألقى إليهم أن البناء على القبور والعكوف عليها من محبة الصالحين وتعظيمهم وأن الدعاء عندهم أرجى في الإجابة من الدعاء في المسجد الحرام والمساجد فاعتادوها، لذلك تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى الدعاء به والإقسام على الله به». اهـ[(١)].

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص: (٢٦٩-٢٧٠) وانظر «الشرك ومظاهره» للشيخ مبارك الميلي ص (١١١ - ١١٥).

ذم اتخاذ الأنداد لله جل وعلا

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٨].

هذه الآية تضمنت ذمًا وعتابًا من الله تعالى لمن جعل لله الأنداد والأشباه من المخلوقين فيحبها كما يحب الله ويرجوها كما يرجو الله وهذا فعل الضالين المشركين بالله ﷻ.

فقد أوضح الله في هذه الآية أن الإنسان إذا نزل به الضر واشتد به الكرب يضرع إلى الله ويخلص له الدعاء والإنابة لا يشرك به غيره، فإذا ما أزيح عنه ذلك وخوله الله بشتى النعم ينسى ربه الذي كان يدعوه عند الشدة والكرب وعند الفقر والمرض، فيشرع في اتخاذ الشركاء من الأصنام التي هي عبارة عن أحجار وأخشاب فيتوجه إليها بالعبادة والدعاء

والاستغاثة ويصرف لها الكثير من أنواع العبادات التي لا يستحقها إلا الله تعالى، أو يجعل لله أندادًا من طواغيت البشر فيطيعهم في معصية الله تعالى كما قال السدي رحمه الله: «الأنداد من الرجال يطيعونهم في معاصي الله، وقال غيره: «عنى بذلك أنه عبد الأوثان فجعلها لله أندادًا في عبادتهم إياها» وقال ابن جرير: «وأولى القولين بالصواب قول من قال عنى به أنه أطاع الشيطان في عبادة الأوثان فجعل له الأوثان أندادًا لأن ذلك في سياق عتاب الله إياهم على عبادتها». اهـ[١].

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب حول قوله تعالى في الآية: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزُّمَر: الآية ٨] أي من مات وهو يدعو لله ندًا، أي: يجعل لله ندًا فيما يختص به تعالى ويستحقه من الربوبية والإلهية دخل النار، لأنه مشرك، فإن الله تعالى هو المستحق للعبادة لذاته لأنه المألوه المعبود دون غيره تألهه القلوب وترغب إليه وتفزع إليه عند الشدائد

(١) جامع البيان (٢٣/ ٢٠٠).

وما سواه فهو مفتقر إليه مقهور بالعبودية له تجري عليه أقداره وأحكامه طوعًا وكرهًا فكيف يصلح أن يكون ندًا[(١)] .

وقد نهى الله تعالى عن أن يجعلوا له الأنداد وذمهم على ذلك قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢].

قال البغوي: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢] أي أمثالًا تعبدونهم كعبادة الله وقال أبوعبيدة معمر بن المثني: الند: الضد وهو من الأضداد، والله تعالى بريء من المثل والضد ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٧١] أنه واحد خالق هذه الأشياء. اهـ[(٢)].

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «الأنداد: الأكفاء من الرجال تطيعونهم في معصية الله» وقال ابن زيد: «الأنداد: الآلهة التي جعلوها معه وجعلوا لها مثل ما جعلوا إله»

(١) تيسير العزيز الحميد ص: (٩٥).

(٢) تفسير البغوي المسمى (معالم التنزيل) على حاشية الخازن (١/ ٣٣) مجاز القرآن (١/ ٣٤).

وقال ابن عباس: «الأنداد: الأشباه»[(١)] .

وقال تعالى في ذم بعض الناس الذين اتخذوا من دون أندادًا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٥].

قال ابن القيم: «فهؤلاء جعلوا المخلوق مثلًا للخالق فالند: الشبه يقال: فلان ند فلان ونديده أي مثله وشبهه... فالذي أنكره الله سبحانه عليهم هو تشبيه المخلوق به حتى جعلوه ندًا لله تعالى يعبدونه كما يعبدون الله». اهـ[(٢)].

وأما اتخاذ العدلاء، بمعنى: جعلهم شركاء لله في العبادة فقد بين تعالى بأن ذلك فعل المشركين.

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعَام: الآية ١] وقال مجاهد «يعدلون» يشركون وقال محمد بن جرير الطبري: «يجعلون شريكًا في عبادتهم إياه فيعبدون معه

(١) تفسير ابن جرير الطبري (١/ ١٦٣)، إغاثة اللهفان (٢/ ٢٢٩).

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ٢٢٩).

الآلهة والأنداد، والأصنام، والأوثان وليس منها شيء شاركه في خلق شيء من ذلك و لا في إنعامه عليهم بما أنعم عليهم، بل هو المنفرد بذلك كله وهم يشركون في عبادتهم إياه غيره»[١].

ولقد بين النبي ﷺ أن اتخاذ الند من أعظم الذنوب والآثام لما روي من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك...» الحديث[٢].

قال ابن الأثير: «الأنداد جمع ند بالكسر، وهو مثل الشيء الذي يضاده في أموره، ويناده: أي يخالفه ويريد بها ما كانوا يتخذونه آلهة من دون الله». اهـ[٣].

ولقد بعث الله نبي الهدى ﷺ لخلع جميع الأنداد التي كانت تعبد من دون الله تعالى وقد كان المشركون يتنافسون

(١) جامع البيان (٧/ ١٤٤).

(٢) متفق عليه صحيح البخاري (٣/ ٩٨)، صحيح مسلم (١/ ٩٠).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٣٥).

فيها وكانت تمثل كثرة هائلة حتى أنه أصبح لكل مشرك في الجاهلية معبود وحتى أنه كان إذا سافر أحدهم يصطحب صنمه معه وكانت حالتهم سيئة كما سنبين ذلك.

من المعبودات الباطلة

لقد بين الله تعالى في كتابه أن المعبودات سواه كثرت وتنوعت من عبادة الأشخاص، إلى عبادة الأحجار والأخشاب، إلى عبادة الهوى إلى عبادة الأجرام السماوية إلى عبادة الملائكة وسنأتي بنبذة حول كل من هذه المذكورات.

١- عبادة الأشخاص من بني الإنسان:

لقد أخبرنا الباري سبحانه أن بعض عبيده ادعوا الألوهية واستعبدوا أتباعهم عن طريق القهر والعنف كما استغلوا جهلهم ونشروا في صفوفهم الضلال عن طريق الكذب والتدجيل وهذا كما حصل من فرعون الذي أخبرنا الله عنه أنه قال لقومه مناديًا لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ

إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القَصَص: الآية ٣٨] وقال تعالى حاكيًا عن فرعون توعده لمن آمن بنبي الله موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٣ - ١٢٤] ومثل فرعون علماء الضلال الذين يشرعون للخلق ما لم يأذن به الله ولا يرضاه وقد ذم الله أهل الكتاب على هذا الصنيع قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبَة: الآية ٣١] فقد أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله فأنزلوهم منزلة الرب سبحانه إذ أنه لا حق لأحد في التحليل والتحريم إذ ذلك من خصائص الباري سبحانه دون سواه، والسبب الذي جعل أتباع فرعون، وأتباع الأحبار والرهبان من أهل الكتاب يعبدونهم ويطيعونهم عدم تحقيقهم عبودية الخوف لله جل وعلا ومن عبادة الإنسان غلو اليهود في العزير والنصارى في عيسى عليه الصلاة والسلام.

٢- عبادة الأصنام والأوثان:

قال ابن جرير رَحِمَهُ الله «والأصنام جمع صنم، والصنم: التمثال من حجر أو خشب أو غير ذلك، في صورة إنسان، وهو الوثن وقد يقال، للصورة المصورة على صورة الإنسان في الحائط وغيره: صنم ووثن». اهـ[1].

أما الراغب الأصبهاني فقد فرق بين الصنم والوثن فقال: الصنم جثة متخذة من فضة أو نحاس أو خشب كانوا يعبدونه متقربين به إلى الله تعالى وجمعه «أصنام» قال الله تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعَام: الآية ٧٤].

قال بعض الحكماء: كل ما عبد من دون الله بل كل ما يشغل عن الله تعالى يقال له: «صنم».

وأما الوثن: فإنه قال فيه: «الوثن واحد الأوثان وهو حجارة كانت تعبد، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ [العَنكبوت: الآية ٢٥]».

(١) جامع البيان (٧/ ٢٤٤).

ومن فرق بين الصنم والوثن الشيخ عبد الرحمن بن حسن فقال: «الصنم ما كان منحوتًا على صورة، والوثن ما كان موضوعًا على غير ذلك...».

إلى أن قال: «وقد يسمى الصنم وثنًا كما قال الخليل عليه السلام ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا﴾ [العنكبوت: الآية ١٧] ويقال: إن الوثن أعم وهو قوي، فالأصنام أوثان كما أن القبور أوثان». اهـ[(١)].

ومهما وجدت من فرق بين الأصنام والأوثان في المادة والهيئة، فغرض الوثنيين منها واحد وهو عبادتها من دون الله تعالى، على أي كيفية كانت وعلى أي صورة وجدت، ولقد انتشرت عبادة الأصنام والأوثان بين العرب الجاهليين انتشارًا هائلًا ولقد صور ابن إسحاق رحمه الله بدء الانحراف عند العرب من نسل إسماعيل عليه السلام في عبادتهم، فقد كان أول انحرافهم أنهم كانوا يعظمون الحرم فلا يرتحلون منه حتى كثروا وضاقت بهم مكة فأخذوا يرتحلون عنه طالبين السعة

(١) فتح المجيد ص(٧٩).

والفسح في البلاد فكان لا يظعن ظاعن منهم عن الحرم إلى غيره إلا حمل معه حجرًا من حجارة الحرم تعظيمًا له فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة، ثم أدى بهم حالهم ذلك إلى عبادة تلك الأحجار ثم كانوا يعبدون من الأحجار ما استحسنته عقولهم». اهـ[(١)].

واسمع ما صار إليه حالهم قال أبورجاء العطاردي: «كنا نعبد الحجر في الجاهلية، فإذا وجدنا حجر أحسن منه نلقي ذلك ونأخذه فإذا لم نجد حجرًا جمعنا حثية من تراب ثم جئنا بغنم فحلبنا عليه ثم طفنا به»[(٢)].

ومن عجائب أمر الجاهلية أن أحدهم إذا كان مسافرًا أخذ معه أربعة أحجار ثلاثة لقدره والرابع يعبده[(٣)].

ولقد بالغ العرب الجاهليون في إكثارهم من الأصنام حتى أنه كان لأهل كل دار بمكة صنم يعبدونه وكان أحدهم

(١) ذكره عنه ابن هشام السيرة النبوية (١/ ٧٧).
(٢) صحيح البخاري (٨/ ٩٠) مع الفتح.
(٣) إغاثة اللهفان (٢/ ٢٢٠).

إذا أراد السفر تمسح بصنمه وإذا رجع من سفره فعل كذلك قبل أن يدخل منزله[١].

وكان من أقدم أصنامهم «مناة» وكان منصوبًا على ساحل البحر الأحمر من ناحية «المشلل» بقديد بين مكة والمدينة وكانت العرب جميعًا تعظمه، وكانت الأوس والخزرج من أشد الناس تعظيمًا له حتى أنه بلغ من تعظيمهم أنهم كانوا يحجون ويقفون المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم فإذا نفروا أتوه فحلقوا رؤوسهم ولا يرون حجهم صحيحًا إلا إذا فعلوا ذلك، وكانت «مناة» لهذيل وخزاعة وبعث رسول الله ﷺ عليًا رضي الله عنه عام الفتح فهدمها[٢].

ثم اتخذت العرب بعد «مناة» «اللات» بالطائف وهي أحدث من «مناة» وكانت صخرة مربعة وكانت سدنتها من ثقيف، وكانوا قد بنوا عليها وكانت قريش وجميع العرب يعظمونها وبها كانت تسمي «زيد اللات» و«تيم اللات»

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٢/ ٢١٠).

(٢) الأصنام للكلبي ص (١٣-١٥) إغاثة اللهفان (٢/ ٢١١-٢١٢).

وقد بعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة لما أسلمت ثقيف فهدمها وحرقها بالنار[١] غير أن ابن جرير روى في تفسيره عن مجاهد في قوله تعالى ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: الآية ١٩] قال كان يلت السويق فمات فعكفوا على قبره[٢] وقد روى البخاري في صحيحه موقوفًا على ابن عباس قال: كان اللات رجلًا يلت سويق الحاج[٣].

ثم اتخذت العرب بعد اللات «العزى» فهي تعتبر أحدث من «اللات» اتخذها رجل يقال له: ظالم بن أسعد بوادي نخلة فوق ذات عرق وبنوا عليها بيتًا فكانوا يسمعون منها الصوت، وذكر ابن عباس أنه كانت للعزى شيطانة تأتي ثلاث سمرات ببطن نخلة فلما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد فقال: ائت بطن نخلة فإنك ستجد ثلاث سمرات فاعضد الأولى فأتاها فعضدها فلما جاء إليه قال هل رأيت شيئًا؟ قال: لا. قال: فاعضد الثانية فعضدها ثم أتى

(١) الأصنام ص (١٦ -١٧)، إغاثة اللهفان (٢/ ٢١٢).

(٢) جامع البيان (٢٧/ ٥٨).

(٣) صحيح البخاري (٨/ ٦١١) مع الفتح.

النبي ﷺ قال: هل رأيت شيئًا: قال: لا. قال: فاعضد الثالثة فأتاها فإذا هو بحبشية نافشة شعرها واضعة يديها على عاتقها تضرب بأنيابها وخلفها سادنها فقال خالد:

كـفـرانـك لا سـبـحـانـك

إنـي رأيـت الـلـه قـد أهـانـك

ثم ضربها ففلق رأسها فإذا هي حممة وقتل السادن ثم أتى النبي ﷺ، فأخبره فقال: تلك العزى ولا عزى بعدها للعرب وكانت العزى لأهل مكة في موضع قريب من عرفات وكانت شجرة يذبحون عندها ويدعون. .اهـ[١].

قال الكلبي في كتابه الأصنام:

«وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها وأعظمها «هبل» وكان فيما بلغني من عقيق أحمر على صورة إنسان وكانوا إذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفرًا أتوه فاستقسموا عنده بالقداح وهو الذي قال أبوسفيان يوم أحد أعل هبل

(١) الأصنام للكلبي ص: (١٧-١٨، ٢٥-٢٦).

فقال الرسول ﷺ: «**قولوا الله أعلى وأجل**»[١].

وهناك أصنام نوح التي ذكرها الله في كتابه فإنه آلت إلى العرب وعبدوها وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: الآية ٢٣] وقد قدمنا قول ابن عباس كان هؤلاء قومًا صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم فلما طال عليهم الأمد عبدوهم.

فكان «ود» لبني كلب بن مرة بن تغلب بن حلوان بن عمران ابن الحاف بن قضاعة وكان منصوبًا بدومة الجندل[٢].

وكان «سواع» لبني هذيل بن إلياس بن مدركة بن مضر، وكان منصوبًا بمكان يقال له «رهاط»[٣].

(١) كتاب الأصنام ص(٢٨) والحديث رواه البخاري انظر الفتح (٦/ ١٦٢-١٦٣) من حديث البراء بن عازب.

(٢) دومة الجندل: بلدة في وادي القرى في الشمال الشرقي من المدينة المنورة منها. انظر معجم البلدان (٢/ ٤٨٧).

(٣) رهاط كغراب موضع على ثلاث ليال من مكة. انظر معجم البلدان (١/ ١٠٧).

وأما يغوث: فكان لبني أنعم من طيئ ولأهل جرش[١] من مذحج وكان منصوبًا بجرش، وأما يعوق، فكان بأرض همدان من اليمن لبني خيوان بطن من همدان.

وأما «نسر» فقد كان بأرض حمير لقبيلة يقال لهم: «ذو الكلاع»[٢] وكان أول من غير دين إبراهيم الخليل بالبدع المحدثة ونشر الأصنام في الجزيرة العربية رجل يقال له: عمرو بن عامر الخزاعي وهو الذي قال فيه النبي ﷺ: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبة في النار كان أول من سيب السوائب»[٣] وقد اختلفت الروايات في الكيفية التي نشر بها عمرو الأصنام في الجزيرة العربية فإحدى الروايات تقول: أنه كان له رئي من الجن وهو الذي دله على الأصنام التي كانت عند قوم نوح وكانت قد دفنت منذ عهد نوح حيث قذفها الطوفان إلى ساحل جدة فوارتها

(١) جرش: كزفر مخلاف باليمن انظر معجم البلدان (٢/ ١٢٦).
(٢) انظر الأصنام للكلبي ص(٥٥، ٥٧) إغاثة اللهفان (٢/ ٢٠٧-٢٠٨) البداية لابن كثير (٢/ ٢٠٨).
(٣) صحيح البخاري مع الفتح (٨/ ٢٨٣).

الرمال على كر الأيام فجاء رئيه من الجن فأخبره بذلك فنبشها عمرو ووزعها على عرب الجزيرة، ودعاهم إلى عبادتها[١].

ورواية أخرى تقول: «إنه جاء بالأصنام من بلاد الشام عندما رآهم يعبدونها طلب منهم صنمًا فأعطوه واحدًا نصبه بمكة وأمر الناس بعبادته وتعظيمه»[٢].

وعلى كل فإن عمرو هذا استطاع التأثير على العرب واستخفهم فأطاعوه حتى غير عليهم دين إبراهيم لما كان له من مكانة فيهم، فأطاعوه في معصية الله تعالى فيما ابتدعه من الأمور التي لم يأذن بها الله.

قال ابن كثير رحمه الله: «والمقصود أن عمرو بن لحي لعنه الله قد ابتدع أشياء في الدين غير بها دين الخليل فاتبعه العرب في ذلك فضلوا بذلك ضلالًا بعيدًا بينًا قطعيًا شنيعًا» اهـ[٣].

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٢٠٧).
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٧٧).
(٣) البداية (٢/ ٢٠٧).

هذه لمحة عن بعض الأصنام التي كانت شائعة عند العرب، وهناك أصنام ومعبودات أخرى يضيق المقام بذكرها، وذكرنا هذا الطرف منها للتمثيل لمعرفة ما كانت عليه حالة العرب في الجاهلية من توجيههم العبادة لتلك الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تغني عنهم من الله شيئًا، فقد كانوا لفرط جهلهم يدعونها من دون الله ويفزعون إليها في النائبات ويزعمون أنها تقربهم إلى الله زلفى، وهذا نتيجة الجهل والغلو في المخلوق وإعطائه منزلة فوق منزلته، قال العلامة ابن القيم مبينًا سبب إقبال العرب على عبادة الأصنام: «ومن أسباب عبادة الأصنام الغلو في المخلوق، وإعطاؤه فوق منزلته حتى جعل فيه حظ من الإلهية وشبهوه بالله سبحانه وهذا هو التشبيه الواقع في الأمم الذي أبطله الله سبحانه وبعث رسله، وأنزل كتبه بإنكاره والرد على أهله، فهو سبحانه ينفي وينعى أن يجعل غيره مثلًا له، وندًا له وشبهًا له لا أن يشبه هو بغيره إذ ليس في الأمم المعروفة أمة جعلته سبحانه مثلًا لشيء من مخلوقاته فجعلت المخلوق أصلًا وشبهت به الخالق، فهذا لا يعرف في طائفة من

طوائف بني آدم، وإنما الأول هو المعروف في طوائف أهل الشرك غلوًا فيمن يعظمونه، ويحبونه حتى شبهوه بالخالق، وأعطوه خصائص الإلهية بل صرحوا أنه إله، وأنكروا جعل الآلهة إلهًا واحدًا وقالوا: ﴿وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡ﴾ [ص: الآية ٦] وصرحوا بأنه إله معبود يرجى ويخاف ويعظم ويسجد له ويحلف باسمه، وتقرب له القرابين إلى غير ذلك من خصائص العبادة التي لا تنبغي إلا لله، فكل مشرك فهو مشبه لإلهه ومعبوده بالله سبحانه وإن لم يشبهه به من كل وجه». اهـ[١].

٣- **عبادة الهوى:**

من أنواع المعبودات التي عبدت من دون الله «الهوى» وقد ورد الإنكار الشديد في كتاب الله تعالى لمن جعل إلهه هواه فيتبعه في كل ما يملي عليه.

قال تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: الآية ٤٣].

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٢٢٦- ٢٢٧).

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: الآية ٢٣].

فالذي يترك أوامر الله ويعرض عنها ويرفض الحق إذا جاءه، فإنه يعد من عبدة الهوى ويصير هواه معبودًا له من دون الله تعالى:

قال عبد الله بن عباس: «ذلك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من الله وبرهان».

وقال قتادة: «هو الكافر لا يهوى شيئًا إلا رَكِبَهُ لا يخاف الله»[١].

وقال ابن كثير: «أفرأيت من اتخذ إلهه هواه». أي أنه يأتمر بهواه فمهما رآه حسنًا فعله ومهما رآه قبيحًا تركه[٢].

ومتى خضع الإنسان لهواه واستسلم له كان بمنزلة الأنعام بل أضل منها كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ

(١) جامع البيان (٢٥/ ١٥٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٦٩).

أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: الآية ٤٤].

قال ابن القيم: «فشبه أكثر الناس بالأنعام والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والإنقياد له، وجعل الأكثرين أضل سبيلًا من الأنعام لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدي ويتبع الطريق، فلا تحيد عنها يمينًا ولا شمالًا، والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل فلا يستجيبون ولا يهتدون ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم والأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات والطريق فتجتنبه وما ينفعها فتؤثره، والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوبًا تعقل بها، ولا ألسنة تنطق بها وأعطى ذلك لهؤلاء ثم لم ينتفعوا بما جعل له من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار فهم أضل من البهائم فإن من لا يهتدي إلى الرشد وإلى الطريق -مع الدليل إليه- أضل وأسوأ حالًا ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه»[١].

والناظر في زمننا الحاضر يرى بأم عينيه أن عبادة الهوى

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٥٩).

غلبت على الكثير من الأمة الإسلامية فتراهم يستحسنون ما تمليه عليهم أهواؤهم فيستحسنون ويستقبحون بعقولهم ولم يلتفتوا إلى الهدى الذي جاءهم من ربهم جل وعلا إننا نرى الكثير ينصر ما توحيه الشياطين إلى أوليائهم من الإنس من المبادئ والمذاهب والتسميات والحزبيات التي كانت سبًا في تفرقهم واختلافهم وكان من أهم الأسباب التي جعلت عدوهم يطمع فيهم وذلك نتيجة لاتباع الهوى، والبعد عما فيه الرشاد والهدى، لا قوة إلا بالله.

٤- **عبادة الأجرام السماوية**:

ومن المعبودات التي عبدت من دون الله تعالى؛ بعض الآيات الكونية مثل: الشمس، والقمر، والكواكب، والماء، والنار، وغير ذلك من المخلوقات.

قال العلامة ابن القيم: «وأصل هذا المذهب من مشركي الصابئة، وهم قوم إبراهيم ﷺ الذين ناظرهم في بطلان الشرك وكسر حجتهم بعلمه وآلهتهم بيده فطلبوا تحريقه، وهو مذهب قديم في العالم، وأهله طوائف شتى فمنهم عباد الشمس زعموا أنها ملك من الملائكة لها نفس

وعقل وهي أصل نور القمر والكواكب وتكون الموجودات السفلية كلها عندهم منها، وهي عندهم ملك الفلك فيستحق التعظيم، والسجود والدعاء»[١].

وقد ذكر أبو بكر الجصاص أن الصابئة اتخذوا الأجرام السماوية معبودات لهم من دون الله حيث قال: «وكانوا قومًا صابئين يعبدون الكواكب السبعة ويسمونها آلهة... وهم الذين بعث الله تعالى إليهم إبراهيم خليله صلوات الله عليه فدعاهم إلى الله وحاجهم بالحجاج الذي بهرهم به وأقام عليهم به الحجة من حيث لم يمكنهم دفعه». اهـ[٢].

فالإنسان حين يسعى في تعطيل عقله عما خلق له فإنه يوقع نفسه في السخافات والمهانات والتذلل للمخلوقات مثله وبذلك يفقد تكريمه الذي نوه الله به في كتابه كما يفقد تفضيله على كثير من المخلوقات فيتدنى حتى يضل عن سواء السبيل فهذه المخلوقات العجيبة المبثوثة في أرجاء هذا الكون علويه وسفليه لم تخلق لتعبد من دون الله وإنما جعلها

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٢٢٣).
(٢) أحكام القرآن (١/ ٤٣).

الله دلائل واضحات وآيات بينات على وحدانيته وتفرده بالعبادة، وجميع المخلوقات التي يشاهدها الإنسان والتي لم يشاهدها كلها خاضعة لله طوعًا أو كرهًا قال تعالى ناهيًا عباده عن أن يسجدوا للشمس والقمر وآمرًا لهم بالسجود له وحده: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فُصّلت: الآية ٣٧] قال ابن جرير الطبري: لا تسجدوا أيها الناس للشمس ولا للقمر فإنهما وإن جريا في الفلك بمنافعكم فإنما يجريان بها لكم بإجراء الله إياهما لكم طائعين له في جريهما ومسيرهما بأنهما يقدران بأنفسهما على سير وجري دون إجراء الله إياهما وتسييرهما، أو يستطيعان لكم نفعًا أو ضرًا، وإنما الله مسخرهما لكم لمنافعكم ومصالحكم فله فاسجدوا وإياه فاعبدوا دونهما فإنه إن شاء طمس ضوؤهما فتركضم حيارى في ظلمة لا تهتدون سبيلًا ولا تبصرون شيئًا»[(١)].

وكما أن الآية بينت أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله

(١) جامع البيان (٢٤/ ١٢١).

التي يستدل بهما على عبادته وحده دون سواه كذلك دلت على بطلان عبادتهما من دون الله وقد بين الله تعالى بطلان عبادة جميع المخلوقات سوى الله تعالى قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحجّ: الآية ١٨].

فأخبرنا الله تعالى بأن جميع المخلوقات التي يحويها هذا الكون من شمس، وقمر، ونجوم، وجبال، وشجر، ودواب، وكثير من الناس خاضعة لله مطيعة له، كلها عبدٌ لديه، مفتقرة إليه، فلا يصح عبادة شيء منها البتة.

قال العلامة ابن القيم: «يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له فإنه يسجد له لعظمته كل شيء طوعًا وكرهًا»[(١)].

٥- عبادة الملائكة:

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: ومن تلاعبه أي الشيطان بهم

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٦٢٢).

أن زين لقوم عبادة الملائكة فعبدوهم بزعمهم ولم تكن عبادتهم في الحقيقة لهم ولكن كانت للشياطين فعبدوا أقبح خلق الله وأحقهم باللعن والذم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: الآية ٢٢].

وقال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ [النِّساء: الآية ١١٧] قال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ [النِّساء: الآية ١١٧] قال: هو شيطان في الصنم، في كل صنم شيطان يتراءى لسدنته فيكلمهم.

وقال أبي بن كعب رضي الله عنه: مع كل صنم جنية.

وقال مقاتل بن سليمان: «إنه إبليس: وعبادته طاعته فيما سول لهم»[1].

ومما تقدم يتبين أن المعبودات من دون الله تعالى

(١) زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٢٠٣).

تنقسم إلى قسمين:

١- قسم عاقل وهذا كالآدمي والملائكة والجن.

٢- وقسم غير عاقل وهذا كالأحجار والأشجار وغيرهما مما لا يعقل[1].

والقسم الأول: ينقسم إلى قسمين:

قسم راض بأن يعبد من دون الله تعالى.

وقسم غير راض بأن يعبد من دون الله، ومثال الأول: فرعون وإبليس وغيرهما من الطواغيت، وهؤلاء جميعهم في النار هم وعابدوهم.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦ - ١٦٧].

وقال تعالى في شأن إبليس وأتباعه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ

(١) انظر معارج القبول للشيخ حافظ بن أحمد حكمي (١/ ٤٤٧).

وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: الآية ٨٥].

وقال تعالى في شأن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: الآية ٩٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [فُصّلت: الآية ٢٩] إلى غير ذلك من الآيات.

وأما القسم الثاني: الذي لم يرض بالعبادة فكالمسيح وعزير والملائكة وغيرهم وهؤلاء كلهم برآء ممن عبدهم في الدنيا والآخرة كما أخبر سبحانه عن عيسى عليه السلام بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

وقال تعالى في شأن الملائكة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ

لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾.

وقال تعالى في شأن كل من عبد من دونه من ملك أو نبي، أو ولي صالح: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٧ - ١٩].

وأما ما عبد من دونه تعالى مما لا يعقل من جماد شجر أو حجرًا وغير ذلك فإنه يدخل في عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨ - ٩٩].

وبما أن الأشجار والأحجار لا أرواح لها إلا أنه يعذب بها من عبدها من دون الله تعالى كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التّحريم: الآية ٦]

وقال ابن كثير: وقودها أي حطبها الذي يلقى فيها جثث بني آدم والحجارة قيل: المراد بها الأصنام التي تعبد لقوله تعالى ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: الآية ٩٨][(١)] وقد جاء في حديث الشفاعة الطويل الذي رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن ليتبع كل أمة ما كانت تعبد فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر وغبر أهل الكتاب[(٢)] فيدعى اليهود فيقال لهم ما كنتم تعبدون قالوا: كنا نعبد عزير ابن الله فيقال: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد فماذا تبغون؟ قالوا: عطشنا يا ربنا فاسقنا فيشار إليهم ألا تَردون، فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا فيتساقطون في النار ثم، فيدعى النصارى فيقال لهم ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيح ابن الله فيقال لهم كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد فيقال لهم ماذا تبغون؟ فيقولون عطشنا يا ربنا فأسقنا قال فيشار إليهم**

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٩٥).

(٢) غبر أهل الكتاب: معناه بقاياهم جمع غابر.

ألا تَردون؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضًا فيتساقطون في النار، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله تعالى من بر وفاجر أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة من التي رأوه فيها قال فما تنتظرون؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد قالوا: يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم فيقول: أنا ربكم فيقولون: نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئًا «مرتين أو ثلاثًا» حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب فيقول: هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها؟ فيقولون: يبقى من كان يسجد اتقاء أو رياءًا إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة فقال: أنا ربكم فيقولون: أنت ربنا . . .» الحديث[(١)].

هذا الحديث يبين النهاية في الآخرة لأهل الشرك وكيف يكون لهم ذلك المصير السيئ الذي تجف منه القلوب وتقشعر له الجلود نعوذ بالله من الشرك وأهله.

تلك بعض معبودات المشركين التي استطعنا جمعها.

(١) صحيح مسلم (١/ ١٦٧-١٧١).



سبب الشرك

يتبين لنا أصل الشرك الذي دفع المشركين لعبادة غير الله تعالى من المعبودات التي ذكرنا والتي لم نذكرها وأن السبب الوحيد في حدوث الشرك هو قياس الخالق سبحانه على المخلوق، فإن المشركين زعموا بعقولهم الفاسدة أن ملوك الدنيا لا يتوصل إليهم إلا بالوجهاء والشفعاء والوزراء الذين يرفعون إليهم حوائج رعاياهم ويطلبون لهم عطفهم فيكون ذلك تمهيدًا للأمر المطلوب منهم. فظن المشركون أن الله تعالى كذلك، وهذا ظن سوء بالله تعالى، وهذا القياس من أفسد الأقيسة إذ أنه يتضمن تسوية الخالق بالمخلوق مع ثبوت الفرق العظيم عقلًا ونقلًا وفطرة إذ ملوك الدنيا إنما يحتاجون إلى الوساطة بينهم وبين رعاياهم لعدم علمهم بأحوال من استرعاهم الله فهم في أشد الحاجة إلى من يعلمهم بذلك، ولأنه ربما لا يكون في قلوبهم رحمة أو شفقة لصاحب الحاجة، فيحتاجون إلى من يعطفهم عليهم ويسترحمهم له، ولذلك يحتاجون إلى الشفعاء والوزراء فيقضون حوائج العباد مراعاة لوزرائهم ومداراة لخواطرهم

وقد يمتنعون من ذلك خشية الفقر لأنهم فقراء.

أما الباري سبحانه فإنه أحاط بكل شيء علمًا يعلم ظواهر الأمور وبواطنها فلا يحتاج إلى من يخبره بأحوال عباده، ولا من يشفع لهم عنده، لأنه رحيم بعباده جواد بالعطاء، ولا يحتاج إلى أحد منهم بل هو أرحم بهم من أنفسهم ومن والديهم وهو الكريم الذي يحثهم ويدعوهم إلى الأخذ بالأسباب التي ينالون بها رحمته وهو يريد من مصالحهم ما لا يريدونه لأنفسهم. وهو الغني الذي له الغنى التام المطلق الذي لو اجتمع الخلق كلهم من أولهم إلى آخرهم في صعيد واحد فسألوه جميعهم فأعطى كلًا مسألته لم ينقصوا مما عنده إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر.

وجميع الشفعاء يخافون منه سبحانه ولا شفاعة لأحد إلا بعد إذنه له الشفاعة كلها.

ومن هذه الأمور يدرك المؤمن جهل المشركين ويعرف سفاهتهم وشدة جرأتهم على الله تعالى كما يعلم الحكمة في كون الشرك أعظم الذنوب وأنه لا يغفره الله لأنه يتضمن القدح في الله تعالى نسأل الله أن يجنبنا ذلك.

وختامًا

احْذَرْ شِراكَ الشِّركِ فهي كثيرةٌ	شتى المظاهر جمةُ الأنواعِ
كم واقِعٍ فيها ويحسبُ أنه	في الدين حُرُّ العَقْد رَحْبُ الباعِ
الشِّرْكُ داءٌ في البريَّةِ كامِنٌ	مُسْتَفحِلُ الأضرارِ والأوجاعِ
الشركُ سترٌ حِيكَ من نسجِ الهَوَى	غطى على الأبصار والأسماعِ
فاقبسْ من التوحيد أعظَمَ جَذوةٍ	وتَمَشَّ تحت ضيائِها اللماعِ
يا عبدُ ثِق باللهِ يَكفِكَ وَحْدَهُ	يا عَبْدُ سَلْهُ يُجِبْكَ بالإسراعِ
واصبر بباب الله نفسَكَ ضارعًا	يفتحه مِصْراعًا على مِصراعِ
وإليه بالطاعات كن مُتوسلًا	لا بالمنى وكواذِب الأطْماعِ
وبآيه المُثلى فَكُنْ متهجدًا	لا بالأغاني العَذبةِ الإيقاعِ[١]

(١) من شعر الأستاذ محمد العيد آل خليفة، في تقديم «رسالة الشرك ومظاهره» للأستاذ مبارك الميلي ص: (٣١ - ٣٢) ط دار الراية - الرياض.

فهرس المصادر والمراجع

- إعلام الموقعين - ابن قيم الجوزية.
- إغاثة اللهفان - ابن قيم الجوزية.
- الأصنام - الكلبي.
- البداية والنهاية - ابن كثير.
- الجواب الكافي - ابن قيم الجوزية.
- الشرك بين القديم والحديث - أبو بكر بن زكريا.
- الشرك ومظاهره - مبارك الميلي.
- الصحاح - الجوهري.
- القواعد الحسان - عبد الرحمن السعدي.
- النهاية في غريب الحديث - ابن الأثير.
- الوابل الصيب - ابن قيم الجوزية.
- تاج العروس - الزبيدي.
- تجريد التوحيد - المقريزي.

- تفسير القرآن العظيم - أبو الفداء بن كثير.
- تهذيب اللغة - الأزهري.
- تيسير العزيز الحميد - سليمان آل الشيخ.
- تيسير الكريم المنان - عبد الرحمن السعدي.
- جامع البيان - ابن جرير الطبري.
- شرح النووي على مسلم - يحيى النووي.
- طريق الهجرتين - ابن قيم الجوزية.
- فتح القدير - محمد بن علي الشوكاني.
- لسان العرب - ابن منظور.
- مباحث العقيدة في سورة الزمر - ناصر الشيخ.
- محاسن التأويل - جمال الين القاسمي.
- مدارج السالكين - ابن قيم الجوزية.
- معالم التنزيل - البغوي.
- منهاج السنة النبوية - أحمد بن تيمية.

فهرس الموضوعات

* * *